أمراض الاستضعاف
و
أمراض التمكـــــين

أحمد طه

مدونة

ذو القعدة 1447 هـ الموافق مايو 2026م

فهرس

مقدمة 5

أمراض الاستضعاف 12

1- الجزع من تكاليف التمكين. 12

2- اتباع الظالمين. 14

3- الأماني الكاذبة. 16

4- الوهن والضعف والاستكانة. 18

5- طلب التمكين بغير رضى الله. 20

6- الرضى بالاستضعاف والقعود عن مواجهته. 22

7- الهرب والتفلّت من تكاليف التمكين. 24

8- حكم المجرمين. 26

9- إيذاء المصلحين. 28

10- الركون إلى الظالمين. 30

11- التغافل عن سنن التغيير. 32

12- ولاية اليهود. 37

13- التخلي عن حمل الرسالة، والرضى بالظلم. 40

14- اتخاذ العدو صديقاً. 43

15- مخالفة إرادة الله. 46

16- الغرور بالقوة المادية. 48

17- التعايش مع البغي. 51

أمراض التمكين 54

1- التولي عن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم. 54

2- أكل أموال الناس بالباطل. 56

3- الإفساد في الأرض (تولي المنافقين مقاليد الحكم والتوجيه) 58

4- الاستهزاء بآيات الله وأحكامه. 59

5- انفصام العروة الوثقى. 61

6- اتباع المتشابه وكثرة الجدال والاختلاف. 63

7- إدمان الشهوات، والتنافس على الدنيا. 65

8- التولي عن حكم الكتاب. 67

9- طاعة الكافرين، والتفرق. 69

10- أكل الربا. 71

11- حب الدنيا وكراهية الموت. 73

12- الرياء والسمعة والتخلف عن الكفاح. 75

13- التهاون في الوقوع في الكبائر. 77

14- البخل والتكبر والرياء. 79

15- التحاكم إلى الطاغوت. 81

16- التولي عن نُصرة المستضعفين. 83
17- ولاية الكافرين. 85
18- ابتغاء الجاهلية. 87
19- التكالب على مغانم التمكين. 88
20- التولي عن الجهاد وحمل الرسالة. 90
21- التولي عن إعداد القوة. 91
22- التحول إلى الفسق، ووقوع الاستبدال. 92
23- التهاون في مواجهة المنافقين. 94
24- الكفر بنعم الله. 96
25- تقديم المصالح المادية على المُثل العليا. 98
26- الترف المُفسد، وتحلل الأمة. 100
27- اتخاذ الأولياء من دون الله. 103
28- تَأييس المؤمنين من مواجهة الكافرين. 105
29- التمتع بزينة الحياة الدنيا والغرق فيها. 108
30- استسهال البغي. 113
31- ولاية من حادّ الله ورسوله. 117
خاتمة 119

مقدمة

يقول الله تعالى:

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤﴾ [البلد: 4]

﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: 56]

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: 2-3]

﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾ [الأنبياء: 35]

﴿... قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [آل عمران: 154]

﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٧٨ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾ [آل عمران: 178-179]

﴿لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران: 186]

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٩﴾ [الزمر: 49]

﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾ [الفرقان: 20]

﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: 127-128]

﴿... وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨﴾ [محمد: 4-8]

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة: 155-157]

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾ [محمد: 31]

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾ [الملك: 1-2]

هذه الآيات الكريمات تُوضح "**الحكمة**" من الوجود الإنساني، و"**الغاية**" مما يَمر عليه من خير وشر، من رحمة وشدة، من رخاء وقحط، من قوة وضعف، من استضعاف وتمكين..

فالغاية من الوجود كله هو: العبادة الخالصة لله ـ جل جلاله ـ وقد تَميز الإنسان بنصيب من حرية الإرادة والاختيار؛ هو مؤهل له، وله به الجزاء الأوفى إذا نجح في الابتلاء والفتنة، وكَابد وجاهد الابتلاء بعزيمة وصبر وهدى ورشد؛ فلم ييأس، ولم يقنط.. لم يَهِنْ ولم يَستكِن ولم يَخضع في حالة الاستضعاف، ولم يَستكبر ويتجبر ويطغى في حالة القوة والتمكن. ولذا جاء في الحديث الشريف: عَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ: "**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**"[1]

وقَالَ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم: "**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ، وَلَا وَصَبٍ، وَلَا هَمٍّ، وَلَا حُزْنٍ، وَلَا أَذًى، وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**"[2]

(1) [صحيح مسلم/ 3001]
(2) [صحيح البخاري/ 5642]

كما أن الإسلام يُعيد للإنسان تفسير الحياة ببعدها الكلي، وليس مجرد بعدها المادي الآني المنظور، فالحياة الحقيقة هي الحياة الدائمة الأبدية الباقية ـ وليس هي سويعات الحياة الدنيا ـ فيؤكد القرآن الكريم على هذا المعنى بكل قوة: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت: 64] أي: دار الحياة الحقيقية التامة الباقية التي لا فناء فيها: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ [الفجر: 23-24]

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡۚ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ٤٥﴾ [يونس: 45]

﴿... كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٣٥﴾ [الأحقاف: 35]

﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾ [المؤمنون: 112-115]

ومن ثم يكون الفوز والنصر والسعادة المطلقة الأبدية في وجود النصيب من هذه الحياة الأبدية الدائمة الباقية التي لا تحول ولا تزول ولا يمل من نعيمها، وفوق كل ذلك وقبله رضوان الله ـ جل جلاله ـ الذي قال: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ [آل عمران: 185]

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾ [آل عمران: 196-198]

هذا التمهيد مهم في بيان ما نحن بصدده مما يُصيب المسلم ـ والإنسان عموماً ـ عندما يقع في "حالة الاستضعاف" أو "حالة التمكين".. ونمضي مع الآيات القرآنية العظيمة، وهي تُشرّح النفس الإنسانية تشريحاً دقيقاً؛ لتُشير إلى "**أمراض الاستضعاف**" و"**أمراض التمكين**" وتُحذر منها ومن وساوس الشياطين، ومن غرور النفس؛ لتقف في كل "رحلة الحياة" على صراط الله المستقيم.

***

والذي دفعني إلى الحديث في هذا الموضوع هو: حال بعض الذين يرون الأمة المسلمة في حالة من الضعف والتيه والغثائية فيحاولون جهدهم لإحياء الأمة من جديد، والتمكين للإسلام والمسلمين، ويا له من جهاد عظيم، وثواب جزيل عند الله ـ إذا كان خالصاً لوجهه الكريم ـ ولكم يسوؤهم حالة الاستضعاف هذه ـ وهي حال تُحزن كل مسلم! ـ ويرغبون بكل قوة أن يتخلصوا منها بأي طريقة، وتظل هذه المشاعر تضغط عليهم، وتؤرقهم، لدرجة قد تنحرف بهم عن الصراط المستقيم! رغم صدق النية، ونبل الغاية!

فكان لا بد من النظر في كتاب الله لنرى: **كيف نواجه حالة "الاستضعاف"؟ وكيف نواجه حالة "التمكين"؟ دون طغيان أو انحراف.**

وإننا لا نريد التمكين السياسي والاجتماعي للإسلام من أي طريق وبأي غاية، بل يجب أن نصل إليه ونحن نمضي على صراط الله المستقيم، وسنة نبيه الكريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإنما عند الله لا يُنال إلا بطاعته، ولم يأمرنا الله بشيء يمكن أن نصل إليه بعصيانه! ولم يُكلفنا بشيء فوق طاقتنا واستطاعتنا.. وإذ لم نصل إليه ونحن نمضي على صراط الله المستقيم وسنة نبيه الكريم فهو إذن ليس بتمكين للإسلام!

وإنه في كل الأحوال سواء أكان حال الاستضعاف أو التدافع أو التمكين سيكون هناك **"عبودية"** و**"ابتلاء"** لا مهرب منه فهو **غاية الحياة..** لا بد من وجود الامتحان، ولكل حال من أحوال الحياة بلاء.. فيجب إذن أن يكون هَم الإنسان الوحيد أن ينجح فيه على مقياس الحق الرباني، وليس النجاح على أي مقياس مادي محدود أو جاهلي:

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: 1-3]

فمثلاً: الأمم القوية الكافرة التي أخذت بأسباب القوة، ومضت إرادة الله أن يُمتعها إلى حين، ويُملي لها.. وربما عاشت حضارتها ألف سنة من القوة والمنعة هي بالمقياس الرباني أمة ضعيفة منهزمة خاسرة.. فألف سنة لا تساوي ساعة من نهار الآخرة، هذا هو المقياس الرباني الصحيح:

﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ۝٢٠٧﴾ [الشعراء: 205-207]

والفوز الرباني هو: الإيمان الصادق بالله، والمضي على طاعته، والاستقامة على صراطه في أي حال كان فيها المجتمع المسلم (مستضعفاً أو ممكناً).

ولقد عاش الحواريون ـ أتباع المسيح عليه السلام ـ حياة الاضطهاد تحت حكم الرومان المتوحشين الوثنيين، وكان هؤلاء الموحدون الثابتون على الحق من شدة البلاء سُمي عصرهم "عصر الشهداء"! ولعل هذا ما ألمح إليه الحديث الشريف: "عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ، قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ (وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً)، فَقُلْنَا: "أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلَا تَدْعُو لَنَا؟، فَقَالَ: **قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**"[1].. وكانوا ـ رغم هذا البلاء ـ من الفائزين المنتصرين.

"وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلّم ـ يَقُولُ: "**... أَلا إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّلْطَانَ سَيَفْتَرِقَانِ فَلا تُفَارِقُوا الْكِتَابَ، أَلا إِنَّهُ سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَقْضُونَ لأَنْفُسِهِمْ مَا لا يَقْضُونَ لَكُمْ، إِنْ عَصَيْتُمُوهُمْ قَتَلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ أَضَلُّوكُمْ**"، قَالُوا: **يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: "كَمَا صَنَعَ أَصْحَابُ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، نُشِرُوا بِالْمَنَاشِيرِ، وَحُمِلُوا عَلَى الْخَشَبِ، مَوْتٌ فِي طَاعَةِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ**"[2]

ولما انتقلت الوثنية الرومانية إلى الوثنية الصليبية؛ وانحرفت المسيحية إلى التثليث في عصر قسطنطين ونقلها من التوحيد إلى التثليث، وعلا شأن الكنيسة وتمكنت في الأرض، لم يكن هذا هو الفوز العظيم! ولكنه كان تمكين "متاع الحياة الدنيا" تمكين السخط واللعنة، لا تمكين رضى الله، والدار الآخرة.

وقد سقط المؤمنون في أخاديدِ النيران وكانوا في ميزان الله هم "الفائزون" وأصحاب الأجر الكبير، كما جاء في "سورة البروج": ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾ [البروج: 11]

ولم يرَ حمزة ـ رضي الله عنه ـ فتح مكة، بل رأى المسلمين ينهزمون عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد أصيب في رأسه ووجهه ـ عليه السلام ـ ومُثّل بجثة حمزة، ومع ذلك كان حمزة في ميزان الله هو "سيد الشهداء"، وبعد فتح الروم وفارس.. كان هناك بعض من عَضهم الملك وفتنته فصرعهم حتى أخذ من دينهم، وكانوا هم الخاسرين!

---

(1) [صحيح البخاري/ 6943، 3852]

(2) [حلية الأولياء لأبي نعيم/ 6895]

ولقد كان المسلمون في شعب أبي طالب وهم في الحصار في حال أهون وأخف من انفتاح الدنيا وكنوزها والتنافس عليها، فلم يخشَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عليهم الفقر، وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

"وَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ"[1].

وإننا لا نقول هذا الكلام من باب السلوى، والحنو على المستضعَفين، والرأفة بحالهم! كلا.. بل نقوله عن يقين بأن **الابتلاء حاضر في كل الأحوال**، وقد يكون بلاء الاستضعاف أخف وأهون من ابتلاء التمكين؛ حيث الغرور بالمتاع، والركون إلى القوة والطغيان بها، وتلألأ زينة الحياة الدنيا..

ومن جانب آخر:

لا يأمرنا القرآن الكريم بالبقاء في الاستضعاف والتعايش معه! والعياذ بالله! بل يدفعنا ـ وبكل قوة ـ للخروج من الاستضعاف ومقاومته بكل سبيل مستقيم، بل لا نصيب لنا من الإيمان إنْ بقينا في هذا الاستضعاف ورضينا به وسلّمنا له، حتى يكون الخروج إلى التمكين خروجاً إيمانياً متواضعاً لله، مؤمناً به، لا مفتوناً بالقوة المادية القاهرة..

وقد دخل النبي ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ مكة يوم الفتح في هيئة خضوع وتواضع شديدين لله، لا في هيئة المتكبر المتجبر وحاشاه عليه السلام؛ فقد كان خافضاً رأسه على راحلته حتى وُصف أن ذقنه كان قريباً من الرحل، وكان يقرأ سورة الفتح. "فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: **"دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ الْفَتْحِ وَذَقْنُهُ عَلَى رَحْلِهِ مُتَخَشِّعًا"**[2].

فيكون حال أهل التمكين هو: الإخلاص لله، وحمل رسالته.. ولا يكون **فترة راحة وجائزة** على الصبر على الاستضعاف، كلا ـ إنما الجزاء في الآخرة ـ فيكون التمكين هو: **لحمل الرسالة للعالمين، والجهاد في سبيل الله، والحذر من الركون إلى الدنيا وزينتها.**

***

(1) [صحيح البخاري/6425] والحديث يقصد الفقر في مقابل الترف والتنافس على الدنيا ومتاعها، وإلا فالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعوذ من الفقر، وسأل الله ـ سبحانه وتعالى ـ "**الْهُدَى وَالتُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى**". ودعى: "**اللهُمَ إِنِي أَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ**" وسأله ـ عليه السلام ـ فقال: "**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ... وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْفَقْرِ**".

(2) [المستدرك على الصحيحين/ (3: 43)]

إنَّ الفئة المستضعفة القابضة على جمر الحق والإيمان والدين والشريعة، والتي تُحارب من طغاة الأرض بشتى أنواع الحروب مع التفنن في إرهابها واستباحتها.. عندما ينظر إليها البعض على هذا الحال يظنها خاسرة بائسة منهزمة ضائعة! ويرى الطغاة ـ في علوهم المؤقت ـ منتصرين أعزاء! أو ينظر إلى حالة الإمهال لهم: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [آل عمران: 178-179] ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمل: 11]

إنهم ينظرون إلى الحلقة الأولى من الرحلة الطويلة..

هؤلاء المستضعفين إنما يحملون بذور التمكين ويفدونها بأرواحهم ودمائهم وأموالهم وهم صابرون محتسبون.. يغرسون هذه البذور في الأرض الطيبة، ويقاومون آفات الطغاة، وقد يموتون قبل أن تنبت الأرض..

ثم تمر الأيام وتقترب نهاية الطغاة المقدرة عند الله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾ [الفتح: 4]

كما تقترب أيضا بدايات التمكين للمستضعفين ويشتد عودهم وتقوى عزيمتهم؛ ويُهيأ الله لهم الأسباب؛ حتى يأتي دورهم في التمكين؛ ولينظر كيف يعملون؟

وبالعودة للحلقة الأولى حيث القابضون على جمر الحق والإيمان.. نجدهم ـ في النهاية ـ هم الفائزون، لقد ذهب الطغاة والمجرمون إلى عذاب جهنم وبئس المصير، بينما مَن بذروا بذورَ الحقِ ـ وهم مستضعفون، مُستقْوُونَ بالله ـ فقد صارَ لهم هذا العمل والكفاح والجهاد طريق نجاةٍ، وخير الفلاح، وصدقة جارية ماضية لهم إلى يوم القيامة بما صبروا، ونالوا ـ بفضل الله ـ الدرجات العلى وجنان عرضها السموات والأرض:

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُۚ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: 5-9]

***

أمراض الاستضعاف

1- الجزع من تكاليف التمكين.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: 154-157]

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: 214]

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: 186]

لكل شيء في هذه الحياة ضريبة وكلفة.. وفي السبيل إلى التمكين للإسلام سيسقط الشهداء، وسيكون هناك خوف، وجوع، ونقص في الأموال، وقلة في النصير، وقلة في الزينة والمتاع، وبلاء وزلزلة في الواقع والقلوب.. وفي كل ذلك يأمرنا الله بـ "الصبر" وعدم الجزع، واللجوء إلى الله، والتطلع إلى نصر الله نِعم المولى ونعم النصير.. وذكره الدائم الحاضر في قلب المؤمن في كل حين، وإذا تحقق ذلك فأولئك هم المهتدون الفائزون.. وما أعظم جزائهم عند ربهم: ﴿عليهم صلوات من ربهم ورحمة﴾..

فالتمكين والنصر لا يأتيان في بيئة مريحة، بل هما مقترنان بـ "الصبر على ما تكره". وإن الهروب من الأمور المكروهة أو الشاقة (التي يتطلبها التمكين) يعني ببساطة تفويت النصر والفرج.

والمنهج النبوي يقرر أن التمكين سُنّة إلهية لا تتحقق بالرفاهية، وإنما بالثبات أمام الابتلاء. وإن الهرب أو الجزع عند اشتداد الكرب ليس مجرد ضعف عابر، بل هو خطر يهدد الفرد في دينه، ويؤخر النصر عن الأمة.

جاء في الحديث الشريف في وصية النبي ـ عليه السلام ـ الجامعة لابن عباس رضي الله عنهما: "... **وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**"[1]

(1) [مسند الإمام أحمد/ 2800]

في **حالة الاستضعاف**، وتضعضع النفس من طول فترات الذل والاستبداد الغشوم الظلوم: تنفر النفس من تكاليف التمكين، وترى في الاستسلام السلامة، وفي الذلة النجاة، وفي قول الحق مهلكة، وفي الركون إلى الظالمين غنيمة ومكسب! وترى في كل محاولة للخروج من الاستضعاف: الدماء والأشلاء، وتتيقن أنها منهزمة لا محالة، وهذه الحالة ضد الإيمان بشكل كلي..

فالإيمان الحق الصادق بالله ـ القوي العزيز ـ يجعل النفس الإنسانية في حالة من الحرية والعزة والكرامة، لا ترضى بالذل، ولا تنام على ضيم، وتبذل من أنفسها وأموالها من أجل تحطيم أوثان الطاغوت، وأصنام الباطل.. وتكسر كل متكبر جبار عنيد، وتدرك أن كل التضحيات في هذا السبيل ـ في الدنيا ـ هي أهون من البقاء تحت حكم الطغاة والفسدة، وإن هذه التضحيات ـ في الآخرة ـ جزاؤها جنة عرضها السموات والأرض.

وإنَّ هذا الطريق قد مرّ عليه الأنبياء والصديقون والشهداء، وهو ابتلاء يواجهه المسلم والأمة المسلمة بالصبر على تكاليف التمكين، والتقوى في إخلاص النية والعمل لله جل جلاله.

***

2- اتباع الظالمين.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: 165-167]

في الاستضعاف: ينتفش الظالمون، ويركنون إلى قوتهم المادية؛ فيميل إليهم الضعفاء المحرومين من القوة، يحبون قوتهم الظاهرة.. حتى ليظنوا أن الظالمين قد أصبحوا أنداداً لله!! فيحصل لهؤلاء الضعفاء حالة "هوس" بالقوة المادية الظاهرة وأصحابها، وبدلاً عن رفض الظلم، ومقاومة الظالمين يستسلم الضعفاء للظالمين، وينبهرون بقوتهم ومظهرهم؛ حتى يتحول الاستسلام والاتباع إلى حالة "حب" لهم ورضى بأفعالهم، وتماهي معهم؛ يصل إلى حالة "**التسليم الربوبي**" لهم؛ فيصبح قولهم وفعلهم شيء مقدس، لا يمر على ميزان العقل، بل يتلقونه بالتسليم المطلق! فيكون مصيرهم جميعاً ـ في الآخرة ـ النار، والعياذ بالله؛ لأنهم ـ ورغم أنهم كانوا مجرد أتباع وذيول ـ إلا أن قلوبهم تشابهت مع قلوب الظالمين الذين اتبعوهم، وكانوا مثلهم من الظالمين، وسيتأكد هذا المعنى في أكثر من موضع من آيات القرآن العظيم بصور مختلفة ومتنوعة..

ومن أجل هذا يأتي التأكيد الإلهي بنصر الله لرسوله والمؤمنين متى استقاموا على منهجه:

﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: 51-52]

ولذا جاء التحذير النبوي الشريف من الرضى بأفعال الظالمين، أو متابعتهم عليها: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ قَالَ: "**سَيَكُونُ بَعْدِي خُلَفَاءُ يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْلَمُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، ثُمَّ يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلَفَاءُ يَعْمَلُونَ بِمَا لا يَعْلَمُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ فَقَدْ بَرِئَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**"[1]

"وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ : "**مَنْ أَعَانَ عَلَى خُصُومَةٍ بِظُلْمٍ أَوْ يُعِينُ عَلَى ظُلْمٍ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّهِ حَتَّى يَنْزِعَ**"[2]

(1) [صحيح ابن حبان/ (15 : 42)]

(2) [سنن ابن ماجه/ 2320]

"وعَنْ عبدالله بن مسعود، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ: "**مَنْ أَعَانَ قَوْمَهُ عَلَى ظُلْمٍ، فَهُوَ كَالْبَعِيرِ الْمُتَرَدِّي يَنْزِعُ بِذَنَبِهِ**"[1] أي: كالبعير الذي سقط في بئر ولا يقدر على الخلاص، كناية عن الهلاك!

ولذا كان الأمر النبوي بتغيير المنكر: "فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قَال: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ يَقُولُ: "**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**"[2]. حتى في حالة العجز عن تغيير المنكر باليد واللسان، كان لا بد من إنكار القلب لكل منكر؛ حتى لا يتماهى مع الظالمين والطغاة ويرضى بالمنكر وفاعليه، وإنما يتحين ويترقب الفرصة لإزالة المنكر، ويتبرأ منه ومن أهله.

والأمر بالتمسك بتقوى الله، والسمع والطاعة لمن يقيم كتاب الله، والحذر من محدثات الأمور في الدين ونظام الحكم والحياة، والتمسك بسنة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ والراشدين المهدين من بعده: "عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، قَالَ: **وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلّم ـ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ**[3] **فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**"[4]

***

(1) [مسند الإمام أحمد/ 4280]

(2) [صحيح مسلم/ 49]

(3) [وفي رواية: "**وَلَوِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا** " (صحيح مسلم/ 1840)، وفي رواية: عبد حبشي أسود مجدع، كناية عن أن الأساس والأصل ليس هو الشكل والنسب والهيئة، إنما القيادة بكتاب الله.]

(4) [جامع الترمذي/ 2676]

3- الأماني الكاذبة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ [البقرة: 246-252]

هناك أمراض للاستضعاف تنشأ مع طول فترة الذل والاستعباد، وهناك أمراض للتمكين تظهر مع طول فترة التمكين، وهناك أمراض بين بين تكون في مرحلة متداخلة بين محاولة الخروج من الاستضعاف (ليس باستضعاف كلي)، وبين محاولة الوصول للتمكين (أولى درجات التمكين).. هذه الأمراض يكون فيه شيئاً من أمراض الاستضعاف، وشيئاً من أمراض التمكين..

من هذه الأمراض "الأماني الكاذبة" وطلب النصر دون إعداد وجهاد، واستهلاك خطاب "الخروج من الاستضعاف" في مصالح ذاتية، أو زعامة اجتماعية، أو محاولة الصراع على الملك قبل أن يتم التمكين، أو التشجع على الاستعداد للتضحية ثم الهرب عند أول الطريق أو منتصفه، أو البحث عن مسارات أخرى غير مسارات "القتال والقوة والبأس"؛ لانحرافات فكرية، أو معضلات نفسية، أو مصالح جزئية، أو الرهبة من الموت، أو التكلس على طريقة فاشلة تحولت في ذاتها إلى "مقدس" لا يمكن تجاوزه[1].

(1) [انظر. إن شئت. بحث: "حماعات التغير السلمي.. تحليل نفسي"]

وفي مثال القرآن الكريم عن ملأ قوم موسى ـ عليه السلام ـ الذين يطلبون الخروج من الاستضعاف إلى التمكين، وقد عرفوا الطريق: "القتال في سبيل الله".. فلما جاءتهم الفرصة "تولوا" ـ إلا قليلاً ـ هذا التولي سببه هنا "الظلم"؛ ظلمهم لأنفسهم، ولإخوانهم، واستمرار البغي بينهم.. أي إن حالة الاستضعاف والبغي الواقع عليهم من الظالمين تحول لأن يظلم بعضهم بعضاً..

ولما اختار الله لهم من يقودهم إلى هذا التمكين ـ وغيره ممن تهيئت له الفرصة وأسبابها ـ اعترضوا، وطمعوا واختلفوا: ﴿أنى يكون له الملك علينا، ونحن أحق بالملك منه؟﴾ وليست المسألة توزيع حقوق أو طمع في ملك أو جاه أو منصب؛ فهذا حال من يجاهد في سبيل المغنم والذكر والمتاع، وليس حال من يقاتل في سبيل الله..

وعند أول بلاء ينفض الجمع ولا يبقى إلى القلة الصابرة.. فقد تولى الأغلبية، ثم بعد أول خطوات التمكين وأول اختباراته يسقط الكثيرون: ﴿فشربوا منه إلا قليلاً منهم﴾!

والفئة القليلة المتسلحة بالإيمان والصبر والثبات تغلب ـ بإذن الله ـ الفئة الكثيرة الفاسدة الباغية المتبطرة، وذلك مثال يضربه الله ـ سبحانه وتعالى ـ في التدافع بين الحق والباطل، والذي به يمنع الفساد في الأرض، ويعلو ـ بإذنه ـ الحق.

***

4- الوهن والضعف والاستكانة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢ وَلَقَدۡ كُنتُمۡ تَمَنَّوۡنَ ٱلۡمَوۡتَ مِن قَبۡلِ أَن تَلۡقَوۡهُ فَقَدۡ رَأَيۡتُمُوهُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ١٤٣ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾ [آل عمران: 139-148]

تختلف "مراحل الاستضعاف"، و"مراحل التمكين" حسب الظروف والسياقات والتوازنات؛ فقد يكون هناك تمكيناً جزئياً أو مرحلياً أو مؤقتاً أو كاملاً، وكذلك الاستضعاف.. وقد يحصل للمسلمين انكسار بعد التمكين كما حصل في "غزوة أُحد"[1] وفي كل الأحوال لا يجوز للمسلمين ـ في لحظات الانكسار والضعف والتراجع ـ أن يَهنوا ويضعفوا ويستسلموا ويستكينوا لعدوهم، إنهم يحملون رسالة الله إلى العالمين، ولا مجال للضعف والاستكانة للباطل ولعدو مهزوم لا محالة، مهزوم في الدنيا والآخرة.. فهم الأعلى بهذا الإيمان، وهذه الرسالة، ويجب الصبر عليها، وما يصيبهم من قرح وأذى وألم فهذه سنة الحياة ـ والكفاح ـ التي تصيب المؤمن والكافر، وإنَّ مَن يسقط مِن الشهداء ومن يَعِشْ من الأحياء فطالما أنهم مخلصون لله فجميعهم أحياء عند الله.. فهذا هو ميزان الحياة الصحيح، وهو بلاء لتمحيص المؤمنين، ووهبهم الله به الجزاء الأوفى في الدنيا والآخرة.

في الاستضعاف: يقع الوهن والحزن في القلوب، ويحدث الوهن والضعف والاستكانة في الواقع، ولا بد من مقاومة هذه الحالة في القلوب والعقول والواقع، ودفع هذا الوهن بقوة الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، والعزم على الجهاد في سبيله، مهما بلغ الانكسار، ومهما بلغ الاستضعاف، والله ـ جل جلاله ـ يُثبّت عباده المؤمنين، وينصرهم ـ كما وعدهم ـ على القوم الكافرين، متى أخلصوا له الدين، واستقاموا على صراطه،

(1) [انظر كتاب: "دروس من غزوة أحد"]

واستفرغوا جهدهم ووسعهم. فلا يهابون الموت، فلن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها.. ولن تموت نفس إلا بإذن الله.. فما عليهم إلا الجهاد في سبيل الله، والصبر على هذا الجهاد.

وقد حذّرت السنة النبوية الشريفة بشدة من الوهن، والضعف، والاستكانة (الخنوع والذل)، واعتبرت الإسلام دين القوة، والعزة، والعمل الإيجابي الفعال. فالضعف النفسي والبدني يؤدي إلى ضياع هيبة الأمة واستباحة حماها.. جاء في الحديث الشريف: "عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ: "**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**"[1]

فالوهن ليس قلة مادية أو عددية، بل هو **مرض نفسي اجتماعي** يبدأ بحب الدنيا والتعلق بمتاعها، وينتهي بالخوف من التضحية؛ مما يورث الاستكانة والضعف العام، وتمكن الأعداء والعياذ بالله.

وقد بيّن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الرضا بالواقع الضعيف والانشغال بالمكاسب المادية السريعة على حساب الواجبات الكبرى يُورث ذلاً طويلاً لا يرتفع إلا بالعودة للحق والجهاد في سبيله: "عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ يَقُولُ: "**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ**[2]**، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**"[3]

***

(1) [سنن أبي داود/ 4297]

(2) ["**بيع العِينة**": هو نوع من البيوع فيه التحايل على الربا، مثل: أن يبيع الإنسان شيئاً ليس في ملكه ولا تحت قدرته المضمونة على التسليم وقت البيع. وفيه حالة من الغبن والنزاع والمضاربات الوهمية والظلم والاحتيال (وكلها ممارسات مرفوضة في الشريعة)، وفي الباب أيضاً: قوله عليه السلام: «**لا تبع ما ليس عندك**». والمعنى العام: لا تُنشئ بيعاً ملزماً على شيء لا تملكه ولا تضمن تسليمه. والمقصد من "أذناب البقر والزرع"، هو الخلود إلى الأرض، والتخلف عن الجهاد، والكفاح، وحمل الرسالة؛ وليس معناه: الزهد في الزرع، أو تربية الماشية.]

(3) [سنن أبي داود/ 3462]

5- طلب التمكين بغير رضى الله.

قال تعالى: ﴿... وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢﴾ [المائدة: 2]

﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦﴾ [الأعراف: 96]

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ [النور: 55]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨﴾ [محمد: 7-8]

﴿... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾ [الطلاق: 2-3]

فالتمكين للذين آمنوا إنما هو "وعد مُقيد" لا "غاية مطلقة" فالتمكين ثمرة لشرطين: الإيمان والعمل الصالح، فالنصر ليس مجرد حشد أدوات، بل التزام بشرع الله، جاء في الحديث الشريف: "**إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا**"[1]

وقال عليه الصلاة والسلام: "**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**"[2]

"وعن ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عليه وَسَلم ـ: "**أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، وَإِنَّ الرُّوحَ الْأَمِينَ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ تَطْلُبُوهُ بِمَعَاصِي اللَّهِ فَإِنَّهُ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ**"[3]

---

(1) [صحيح مسلم/ 1016]

(2) [صحيح البخاري/ 2697]

(3) [مسند ابن أبي شيبة/ 35335]

فلا يُتقرب إلى الله بمعصيته، ولا تُنال طاعته بمعصيته، فـ"الغاية الصالحة" لا تُصحّح "الوسيلة الفاسدة". والاستضعاف لا يُبيح الإثم والعدوان، بل يَستدعي مزيداً من التقوى والصبر والعدل.

وقد رفض النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المساومات العقدية والسياسية التي تمسّ التوحيد، فكان وهو في أضعف مراحل الدعوة لم يجعل "تخفيف الضغط" أو "مكاسب مرحلية" مبرراً لتجاوز أصلٍ شرعي. وقد كان كفار قريش يرغبون في هذه المساومات والمداهنات والترقيع والوهن واللين والمصانعة، ولم يُجبهم لها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال تعالى:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: 9- 10]

يظن البعض أن الوسائل البراجماتية (التي لا تلتزم المعايير والأخلاق الربانية) تبيح له وهو في حالة استضعاف أن يقترفها طالما "النية طيبة" وأنه عندما يصل إلى التمكين بالوسائل الخسيسة سيُصلح ما فسد، لكنه يجد أن نفسه ذاتها قد فسدت، وأن الوسائل الفاسدة جلبت الفاسدين، وإن ظل الشريعة والتقوى ظل يخفت حتى انطفأ نوره في قلوبهم.. وهذا لا يُعد في ميزان الله تمكيناً، بل خسارة:

﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ۝١١٢﴾ [طه: 112]

فالخروج من الاستضعاف إلى التمكين الرباني لا بد أن يمر على صراط الله المستقيم، ولا يوجد ما يُبيح الخروج عن هذا الصراط في أي مرحلة من مراحل الحياة. والحنكة والمرونة والتدرج والمدارة وارتكاب أخف الضررين[1]... إلخ من مصطلحات وأحوال **لا تُبيح أيضاً الخروج عن ظل الشريعة في شيء**[2]، ولا الخروج عن صراط الله المستقيم، **وإنما التمسك بالتقوى أبداً**، وهذا هو النصر والتمكين الحقيقي للحق والدين والشريعة.

***

(1) مثل خداع العدو، كالاحتيال في قتل عدو الله ورسوله "كعب بن الأشرف" [انظر مقال: "كعب بن الأشرف.. درس في المواجهة"]، ومثلما هَمّ علي بن طالب وصحبه ـ رضوان الله عليهم ـ أن يجردوا المرأة التي كانت تحمل كتاب حاطب بن أبي بلتعة لقريش يخبرهم بفتح مكة، وقولوا للمرأة: "لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا" [صحيح البخاري/ 3007]. ومثل أن رفع بعض البحارة المسلمين راية الصليب فوق سفهم ليمروا من كمين للعدو في بعض الغزوات. ونحو ذلك مما فيه دفع الأذى عن المسلمين، والذي يُقدر بقدره، وتنعدم فيه الوسيلة المشروعة، ولا يقع فيه أذى على مسلم، ولا يُتجاوز فيه الحد، ولا يُتمادى فيه، وإنما يحقق مصلحة عليا للإسلام ولعموم المسلمين.

(2) [انظر مقال: "تطبيق الشريعة، وحالة العجز"]

6- الرضى بالاستضعاف والقعود عن مواجهته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: 97-99]

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم: 21]

لقد سَمى الله ـ جل جلاله ـ بعض المستضعفين بـ "الظالمين" لقد ظلموا أنفسهم حينما رضوا بالقبول بحالة الاستضعاف ولم يسعوا إلى "الخروج" من هذا الاستضعاف، والتدافع معه والاشتباك مع الباطل، رضوا بقوة الباطل، والاستسلام لحالته، دون مقاومة.. لقد كان مصير هؤلاء المستضعَفين النار بما ظلموا!

فكتاب الله يوجهنا إلى أن حالة الاستضعاف لا تعفي المؤمن من **مسؤوليته الاجتماعية السياسية**، بل عليه مقاومة الاستضعاف والذلة والهوان بكل حيلة ووسيلة، ويعد العدة لمواجهة الباطل بكل ما يستطيع من قوة ممكنة.. إن هذه المقاومة، وهذا الرفض للباطل، وهذا الاستعداد للجهاد هو **الضمانة الوحيدة** لعدم ذوبان المستضعفين في الباطل، والانجذاب إليه، والدخول في فضائه ومجاله.. وإنْ هم ذابوا في الباطل واندمجوا فيه ورضوا به.. سيكون هؤلاء المستضعفين أشد وحشية وولاء ووفاء للباطل وأهله؛ لأنهم سيحاولون إثبات إخلاصهم وولائهم للباطل وأهله، فيتنافس المستضعَفون فيما بينهم من أجل التقرب إلى الظالمين والمبطلين والفاسدين؛ لذا كان: ﴿مأواهم جهنم، وساءت مصيرا﴾.

واستثنت الآيات الكريمات أولئك الذين بلغوا وسعهم وجهدهم، ولم يعد لهم حيلة ولا يجدون سبيلا، لكن مازالت قلوبهم **تقاوم الباطل، وترفض الظلم، ولا تعين ظالم، ولا تُتابع الظالمين على أفعالهم، ولا تُكثّر سوادهم، ولا تروج لأباطيلهم ودجلهم، ولا تتسمّع لكذبهم ودجلهم، وتتحين وتترقب الفرصة للخروج من هذا الاستضعاف ومجاهدة الباطل باليد واللسان والقلب.**

والتوجيه في الآيات الكريمات بالهجرة كان الهجرة إلى دولة الإسلام في المدينة، وترك دار الكفر في مكة حينها، وتحمّل تبعات تلك الهجرة من ترك الأموال والمصالح والروابط، ورفض الاضطهاد والذلة لحكم الكفر، وتحمل تكاليف هذه الهجرة ومشقتها.

فالمنهج الإسلامي يرفض الاستكانة للظلم أو الرضى بالاستضعاف في حال كان المرء قادراً على المدافعة، أو الهجرة، أو السعي لتغيير واقعه. فالقرآن الكريم نَعَى على الذين قبلوا بالدونية وقالوا عذرًا: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ طالما كانوا قادرين على الحركة.

وفي السنة النبوية الشريفة، جاءت تحذيرات شديدة من الخنوع، والقعود عن مواجهة البغي، وقبول العجز كأمر واقع. فأمرت **بالأخذ على يد الظالم**، وقد حذّر النبي ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ من خطورة سكوت المجتمع ورضاه باعتداء الظالمين ومستكبري الأرض، وبيّن أن الرضى بالظلم، والقعود عن مواجهته يجلب العقاب الجماعي، فقال رسول الله ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ: "**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ**"[1]

وذم العجز: عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ: أَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ "قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ: **إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ**، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ، فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ"[2]

"**يلوم على العجز**": العجز هنا هو الاستكانة وترك الأخذ بالأسباب والرضى بالهزيمة النفسية. و"**عليك بالكَيْس**": أي عليك بالفطنة، والتدبير، والعمل، ومحاولة دفع الاستضعاف. فكلمة "حسبي الله" لا تُقال تكاسلاً وتفويضاً مع القدرة على الفعل، بل تُقال بعد استنفاد الوسائل المتاحة.

فالرضى بالاستضعاف يتنافى مع أصل وجوب التغيير والمدافعة للمنكر والباطل: "عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ يقول: "**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**"[3]

فالاستضعاف والظلم من أكبر المنكرات، والحديث يوجب التحرك لمواجهة الاستضعاف وتغييره بكل وسيلة ممكنة، ولم يعذر بالقلب إلا العاجز عجزاً حقيقياً كاملاً.[4]

***

(1) [جامع الترمذي/ 2168]

(2) [صحيح أبي داود/ 3627]

(3) [صحيح مسلم/ 52]

(4) [للمزيد: انظر درس "الاستضعاف المُقاوِم، والاستضعاف المُذِل، في كتاب: "العقيدة السياسية في التصور الإسلامي"]

7- الهرب والتفلّت من تكاليف التمكين.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: 20-26]

الله ـ جل جلاله ـ يعطي الفرصة للمستضعفين ليتمكنوا في الأرض، فما الاستضعاف إلا بلاء، والتمكين بلاء أشد منه، والله يُداول الأيام بين الناس ليعلم ـ وهو العليم سبحانه بكل شيء قبل أن يكون ـ الذين صدقوا ويعلم الكاذبين، ويعلم الذين آمنوا ويعلم المنافقين..

إنَّ التهرب من تكاليف التمكين، والتفلّت من مقتضيات ومتطلبات الجهاد هو أخطر ما يصيب مجتمع المستضعفين الذين يألفون حياة الاستضعاف والذلة.. إذ تأتيهم الفرصة العظيمة فيفرطون فيها **بالأفكار الفاسدة، وبالسلوكيات الفاسقة، وبالحسابات الخاطئة، وبالأعذار الواهية، ويستنكفون عن سماع النصح، ويتنطعون في الاستجابة** ـ كما حصل مع قوم موسى عليه السلام وهو يعدهم بالنصر والتمكين! ـ وقد أدرك جيل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ هذا الدرس جيداً، فقالوا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم بدر: "**لَا نَقُولُ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى {فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا} وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ وَعَنْ شِمَالِكَ، وَبَيْنَ يَدَيْكَ وَخَلْفَكَ"، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ـ صَلى اللهُ عليه وَسَلم ـ أَشْرَقَ وَجْهُهُ وَسَرَّهُ يَعْنِي قَوْلَهُ**"[1]

والله ـ سبحانه ـ يُفصل لنا الآيات لنستبين سبيل المجرمين؛ ولنأخذ العبرة؛ ولنتعلم الدرس؛ ولنسترشد بنوره الطريق؛ ولنمض على صراطه المستقيم، فأهم ما يجب على الأمة عمله وهي في "مرحلة استضعاف" أن: **تعد العدة للخروج من هذا الاستضعاف، وتستعد للفرصة الآتية لها، وتقاتل تحت راية الله جل جلاله، وتستعد للتضحية في سبيل الله، ولا تركن إلى الذين ظلموا، ولا تستمع للذين استمرءوا الذل، ورضوا بالعبودية للطغاة فانسلخوا من دينهم ومسخوا فطرتهم واداركوا إلى أسفل سافلين! ولا تعبأ بالغلاة الجهلاء المتنطعين المهووسين بالتكفير ورمي الأمة بالشرك والردة، فتحذر من إفسادهم للجهاد، والصد عن سبيل الله!**

(1) [صحيح البخاري/ 3952] "قوله": يعني قول الصحابي (الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ) رضي الله عنه.

ولا تلتفت للمتذبذبين ـ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ـ الذين يحرقون الفرص، ويبكون الأطلال!

فلا بد للتمكين من: الإخلاص، والعزيمة على الرشد، ورجال أولي بأس شديد، ووعي رباني، وقوم متقين يرجون الله والدار الآخرة.

فلا بد من الجهاد للخروج من الاستضعاف، ولا بد من الجهاد للوصول إلى التمكين، ولاستمرارية التمكين؛ ولحفظ الدعوة، ولتبليغ الرسالة، ولحمل رسالة الله إلى العالمين، ولذا؛ كان ذروة سنام الإسلام، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمعاذ: "**أَلا أُنَبِّئُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ كُلِّهِ، وَعَمُودِهِ، وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**"[1]، وفي رواية: "**رَأْسُهُ الإِسْلامُ وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ وَذُرْوَةُ سِنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**"[2]

***

(1) [حلية الأولياء لأبي نعيم/ 6178]

(2) [أحكام القرآن للجصاص/ 614]

8- حكم المجرمين.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجۡرِمِيهَا لِيَمۡكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمۡكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ١٢٣﴾ [الأنعام: 123]

﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩﴾ [الأنعام: 129]

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: 153]

﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ١٦٤ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٦٥﴾ [الأنعام: 162-165]

كل نظام حكم غير نظام الحكم الإسلامي هو حكم الإجرام والمجرمين.. ونظام الحكم الإسلامي هو الذي يتمثل في قوله تعالى: ﴿قل: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾ هو النظام الذي ينبثق من اتخاذ الله رباً، ونبيه رسولاً، وكتابه شرعة ومنهاجاً: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٦﴾ [القلم: 35-36]

وفي الاستضعاف ـ وغياب النظام الإسلامي ـ يتولى المجرمون مقاليد الحكم والسلطة والفكر والتوجيه، ويحتكرون السلطة والثروة، ويحددون القيم والموازين.. ويمكرون مكراً تكاد تزول منه الجبال؛ لتعبيد الناس لذواتهم ومصالحهم وأهوائهم وتصوراتهم، فيصبحون بذلك **أرباباً للناس** من دون الله![1]

وعلى الجانب الآخر: أولئك الذين استجابوا للباطل، وتَسمّعوا للكذب، وانشرحت صدورهم للدجل، والإجرام، والظلم، والذين فسقوا في أخلاقهم وسلوكهم.. فكانوا بذلك ظالمين ـ ولو كانوا مستضعَفين ـ واستحقوا ـ بما قدمت أيديهم ـ أن يستخف بهم المجرمون، وأن يتسلطوا عليهم.

(1) [انظر مقال: "العبودية للطغاة"]

بينما ـ وفي كل الأحوال من استضعاف أو تدافع أو تمكين ـ هناك صراط الله المستقيم، الواجب اتباعه في كل الأحوال، سواء الفرد أو الجماعة أو النظام المنبثق عنها، فإذ لم يكن منبثقاً عنها ومعبراً عنها، إنما مفروض عليها من خارجها، **فوجب عليها مقاومته وجهاده ودفعه إذ لم يكن يمضي على صراط الله المستقيم**، فلا رب للفرد والجماعة والنظام إلا الله.. رب العالمين، رب كل شيء، وقد جعل الله ـ جل جلاله ـ الإنسان خليفة في هذه الأرض؛ ليتحقق الابتلاء الذي يجاهد فيه العبد المؤمن لتحقيق العبودية الخالصة لله رب العالمين في كل مجال ونشاط، وفكر وشعور، وحركة وعمل، وعبادة وتقوى، وسياسة واقتصاد، ودفع وجهاد.[1]

"عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلّم ـ يَوْمًا خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: **"هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ"، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِه، وَعَنْ شِمَالِه، ثُمَّ قَالَ: "هَذِه سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾**"[2]

***

(1) [انظر كتاب: "توحيد الربوبية.. ومفهوم الحاكمية"]

(2) [سنن الدارمي/ 202]

9- إيذاء المصلحين.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: 127-129]

بطول فترة الاستضعاف والاستبداد الفرعوني ـ دون مقاومة ولا رفض ـ تفسد الفطرة، وينطبع في النفس مسألة "الخوف الهستيري" من بطش الظالمين، ويتكلس العقل وتتكيف النفس على القبول بالأمر الواقع والتسليم له.. ومن ثم ترى في دعوة المصلحين إيذاء لهم! ـ وقد قالها بنو إسرائيل لنبي من أولي العزم من الرسل "موسى عليه السلام" ـ ترى في دعوتهم هدم لما ألفته نفوسهم من الذلة والمهانة، ويرونها على نحو فيه تهور واندفاع وخطورة على حياتهم، مهما كانت هذه الحياة مليئة بالذل والخنوع والاستكانة! ويُفضلون ضريبة الذل على تكاليف الحرية رغم فداحة ضريبة الذل التي تأكل كرامتهم وإنسانيتهم ودينهم ودنياهم!

وبدل أن تلتف حول المصلحين تؤيدهم وتدعمهم وتشد من أزرهم وتجاهد معهم في معركة التحرر من الاستضعاف والاستبداد الفرعوني.. تحاول أن تؤذيهم بالتسفيه، وبالتحقير، وبالتحاسد، وبمعاونة الظالمين عليهم، تجادلهم كثيراً في كل أمر، وتختلق الأعذار لكل مشقة وتكليف، وبينما يستذلون أنفسهم للطغاة، يشمخون ويتعالون على مصلحيهم، ويلقون عليهم المسؤولية وحدهم!!

والنفس الإنسانية التي تصل إلى هذه الحالة ففي أغلب الظن لا رجاء منها.. إنما الرجاء ـ بعد الله ـ في النفوس الحرة الأبية، المتفتحة للإيمان ودعوة الحق، المتطلعة للتحرر، والراغبة في التغيير، والمستعدة للتضحية والفداء.

ويجيد الفراعنة معركة كسب العقول واستلاب الوعي، فجعلوا دعوة موسى لدين الله إفساداً في الأرض! بينما قتلهم الذرية والقهر والظلم هو ـ في موازينهم ـ الإصلاح في الأرض! والفراعنة والفسدة والطغاة ستحارب ـ في كل الأحوال ـ وستُفسد في كل الأحوال سواء أكان هناك دعوة حق أم لا! ولم يدرك بنو إسرائيل هذه الحقيقة فقد كانوا في ذلة قبل رسالة موسى، ولما جاءهم بالخلاص ظنوا أنه هو السبب فيها!

والفراعنة والطغاة والمجرمون لن يتورعوا عن ارتكاب كل جريمة في سبيل بقاء سلطتهم وعروشهم ونظم حكمهم؛ فها هم يذبحون الأطفال الذكور ـ ويا لها من جريمة تهون أمامها كل الجرائم! ـ لإثبات قدرتهم على القهر؛ ولتعبيد الناس للفرعون ونظامه وآلهته، فهم يزعمون الربوبية لأنفسهم، وتمثيل الآلهة في الأرض!

ويجب أن يكون في إدراك المستضعفين أن الطغاة الفجرة لا عهد لهم، ولا ذمة، ولا خلاق، وأنهم في سبيل السلطة والربوبية على الناس سيرتكبون كل جريمة مهما بلغ فحشها وجرمها، وعلى المستضعفين الاستعداد لمواجهتهم **بعزم لا يلين، وبأس لا يضعف، وبقوة لا تنكسر، وإيمان لا شك فيه.**

والقاعدة الربانية العامة: إنه بالاستعانة بالله، وبالصبر على التكاليف، وتقوى الله.. فهي طريق الخلاص، والأرض لله، يورثها من يشاء؛ ليبتلي من يشاء بالتمكين مثلما يبتليهم بالاستضعاف.

لذا؛ فأهم ما يجب على المسلمين الانتباه إليه في حال استضعافهم أن **لا تنتكس فطرتهم** على نحو ما حصل لبني إسرائيل، **ولا تكيف نفوسهم على الباطل** أو الظلم أو العدوان أو الاستبداد الفرعوني، **ولا تجزع** من تكاليف التحرر.. حتى إذا جاء المصلحون، ومنح الله المسلمين فرصة التحرر، كانوا رداءً وحماة لدعاة الحق، لا أعواناً للظالمين.[1]

***

(1) [للمزيد، انظر كتاب: "أمراض الاستبداد.. الجزء الثاني"]

10- الركون إلى الظالمين.

قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦﴾ [هود: 112-116]

"القوة" هي حلم المستضعفين في الأرض، يفكرون فيها دوماً، ويُعولون عليها الآمال في الخلاص من الاستضعاف، وعندما يطول الأمد ويتطلع المستضعفون إلى التمكين بغير رضى الله، يتحول عندهم "الأقوياء" إلى قدوة ومثال، وإلى رهبة واحترام، وإلى تقدير وثناء! فقد اختل الميزان في أيديهم، فحسبوا القوة المادية الظاهرة هي القوة الحقيقية الباقية، ولم يدركوا أن هؤلاء الأقوياء هم أضعف الخلق وأهونهم وأدناهم منزلة عند الله، لأنهم استغنوا بقوتهم المادية، وبغوا وطغوا في الأرض..

ونظرة المستضعفين ـ لهؤلاء المجرمين المفسدين الباغين ـ هذه النظرة من التقدير ومن تقديس القوة المادية الظاهرة تجعلهم **يركنون ويميلون** إلى الذين ظلموا.. هذا الركون سواء أكان بالإعجاب والانبهار والانسحاق أو بالدخول في حزبهم وجماعتهم أو بتَيْئِيسِ المؤمنين من جهادهم أو بالرضى عنهم ومتابعتهم هو في النهاية ركون إلى النار والعياذ بالله، وكانت البداية هي: **اختلال الموازين في نظر المستضعفين.**

جاء في الحديث الشريف: عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ أَنَّهُ قَالَ: **"إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ"**[1]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، أَن رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ قَالَ:

"مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي، إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِه حَوَارِيُّونَ، وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِه وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِه، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ، يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإِيمَانِ، حَبَّةُ خَرْدَلٍ"[2]

---

(1) [صحيح مسلم/ 1856]

(2) [صحيح مسلم/ 52]

فيجب التحرر من هذا الخوف المستيري من الظالمين، وجهادهم باليد واللسان والقلب مع حسن التوكل على الله الكافي لعباده والقاهر فوق عباده، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر: 36]

كما يستغل الشيطان هذا الخوف في السيطرة على أتباعه وأولياءه، وبهم يحارب المؤمنين ويحاول إرهابهم: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: 175]

فأما الموازين الربانية: فحساب القوة فيها ذات شأن آخر؛ إن القوة الحقة هي: الاستقامة على صراط الله المستقيم بلا طغيان، بلا إفراط أو تفريط.. استقامة من يقوم لله ويشهد بالقسط، ويقوم بالقسط ويشهد لله.. استقامة من يقيم الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ وتأمر بالمعروف ـ في كل شأن من شؤون الحياة ـ يتبعها الصبر الجميل، والاحتساب العظيم الذي لا يستعجل النصر والتمكين، ويستمسك بالحق والوحي، ويأخذ الكتاب بقوة..

ولا يظن أن الاستضعاف يُجيز التهاون في بلاغ الرسالة أو التنازل عن جزء منها أو الإيمان ببعضها والكفر بالبعض الآخر! بل يمضي مؤمناً محتسباً، راضياً بقضاء الله، وبحكمته وبعدله، الصبر الذي يؤدي الأمانة، ولا ينتظر العوض والجزاء إلا في الآخرة، استقامة من يُعد القوة ـ كما أمر الله ـ وهو متجرداً من حوله وقوته إلى حول الله وقوته..

وهؤلاء هم "البقية" الباقية التي تنهى عن الفساد في الأرض؛ فساد العقائد، والضمائر، والموازين، وفساد السلوك والنظم، وتنهى عن الطغيان والظلم والتجبر والعدوان، وأمام هذه البقية المؤمنة، حفنة من المترفين المجرمين رضيت بمتاع الدنيا واطمأنت به.. والتدافع بين الفئتين قائم إلى يوم الدين، فطوبى للبقية الباقية من أهل الإيمان.

***

11- التغافل عن سنن التغيير.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣﴾ [الأنفال: 53]

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ١١﴾ [الرعد: 11]

﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [الأنفال: 25]

يبدأ التغيير دوماً في عالم النفوس ـ وما الواقع إلا انعكاساً لما بالنفوس ـ حيث (القلوب والعقول)؛ حيث (النوايا، والسبل الفكرية والاعتقادية)، فإذا صلحت النوايا ـ وكانت خالصة لله ـ كان الاهتداء: ﴿... قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَنۡ أَنَابَ ٢٧ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد: 27-28]

والتغيير في حالة "**الفرد**" يختلف عن الجماعة.. إذ الفرد يملك زمام نفسه، ويملك أن يصحح نيته وفكره وقيمه وموازينه ومن ثم عمله؛ وبذلك يتغير من الخبيث إلى الطيب ومن الضلال إلى الهداية ومن الخسارة إلى الفوز ومن السخط إلى الرضى. بينما في حالة "**الجماعة**" يجب أن يحصل التغيير على مستوى القوم، على مستوى "**النفس الاجتماعية**" التي تمثل القوم في مجموعهم، ومطلوب من هذه "النفس الاجتماعية" تصحيح نيتها وفكرها وقيمها وموازينها ومرجعيتها وعملها بحيث يكون كله في سبيل الله.. ويجب أن تظل "الدعوة إلى الله ورسالته وكتابه وشرعه"، و"الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والفساد في الأرض" **دعوة دائمة** إلى يوم الدين لا تتوقف أبداً لا في استضعاف ولا في تمكين.

ولكي يتم التغيير من "الاستضعاف" إلى "التمكين" لا بد من تغيير ما بالنفوس من "**أمراض الاستضعاف**" وتصحيح القيم والمفاهيم والمرجعية؛ بحيث تكون **مؤهلة ومستحقة** لمرحلة التمكين.

والتغير من "نعمة" التمكين إلى "ذل" الاستضعاف لا بد أنه وقع بسبب التغير في النفوس بما أصابها من "**أمراض التمكين**"، وحتى تعود مرة أخرى لهذا التمكين عليها التطهر من هذه الأمراض: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ [الروم: 41]

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾ [الشورى: 30]

في الاستضعاف: يظن البعض أن التمكين سيهبط عليه من السماء لأنه طيب ويؤدي بعض السنن والفرائض! أو ينتظر ظهور البطل الخارق الذي سيحرر المستضعفين وهم جالسون يصفقون له! أو ينتظر نهاية الزمان والملاحم! وهذا فضلاً عن أنه انتحار سياسي فهو أيضاً انتحار حضاري، وخروج كلي عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم! وهو تفكير خرافي أسطوري فيه تخدير وتسلية للمستضعفين، وتحليلهم من المسؤولية الفردية، والاجتماعية السياسية تجاه سنن التغيير! ويروج له بعض الجهلاء والدجاجلة والأنظمة الفاسدة التي ترى في هذا الخطاب وسادة أمان لهم من غضبة الحق وأهله.[1]

وفي كل الأحوال لا بد من عمل على مستوى الفرد والجماعة؛ على مستوى "الفرد" بتغيير كل القيم الباطلة والموازين الفاسدة، وتصحيح النية والعمل، وهذا أثره ينعكس على الفرد بشكل مباشر.

وعلى مستوى "الجماعة" مطلوب من الفرد أن يؤدي دوره ومسؤوليته "السياسية الاجتماعية" في عملية التغيير، وأثرها إنما يحصل عندما يصل أثر التغيير الحق على مستوى "النفس الاجتماعية" وينصبغ بها، ويصل إلى "**الكتلة الحرجة**"[2] التي يمكن أن يحصل بها الانقلاب الاجتماعي الجهادي لصالح الحق وأهله، وعندها يستطيع أن يتقدم ليأخذ ـ بالحق والعدل ـ زمام الحكم والسلطة، ويتم عملية التمكين الحق[3]؛ ولذا فهذا الدور لا ينقطع أبداً لا على مستوى الفرد ولا على مستوى الجماعة: جاء في الحديث الشريف: "عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلم ـ قَالَ: "**مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا**"[4]

وفي رواية: "عَنِ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ، يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا عَلَى أَيْدِي سُفَهَائِكُمْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلم ـ يَقُولُ: "**إِنَّ قَوْمًا رَكِبُوا الْبَحْرَ فِي سَفِينَةٍ فَاقْتَسَمُوا فَأَصَابَ كُلُّ رَجُلٍ مَكَانًا، فَأَخَذَ رَجُلٌ مِنْهُمُ الْفَأْسَ فَنَقَرَ مَكَانَهُ، فَقَالُوا: مَا تَصْنَعُ؟، قَالَ: مَكَانِي أَصْنَعُ بِهِ مَا شِئْتُ، فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ نَجَوْا وَنَجَا وَإِنْ تَرَكُوهُ غَرِقُوا وَغَرِقَ، فَخُذُوا عَلَى أَيْدِي سُفَهَائِكُمْ قَبْلَ أَنْ تَهْلِكُوا**"[5]

---

(1) [انظر كتاب: "العقيدة السياسية في التصور الإسلامي"]

(2) ["**الكتلة الحرجة والصلبة**" يمكن قياسها تقريباً بنسبة (10%) من مجموع الكتلة الشبابية (ومن هم في سن القتال) بالنسبة لعدد السكان، مستلهماً قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: 65] أو (10%) من مجموع القوة القتالية والأمنية في بلد ما. و"الكتلة الصلبة" هي: القيادة الفكرية والجهادية والرواد وحملة الفكر، و"الكتلة الحرجة" هي: الحاضنة والرداء والجند للكتلة الصلبة.]

(3) [انظر مقال: "القاعدة الجماهيرية الإسلامية.. والقيادة الحديدة"]

(4) [صحيح البخاري/ 2493]

(5) [الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن أبي الدنيا/ 69، مسند عبد الله بن المبارك]

و"عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، أَنَّهُ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ يَقُولُ: **"إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ"**[1]

و"عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ: **"أُعِيذُكَ بِاللَّهِ يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ مِنْ أُمَرَاءَ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِي، فَمَنْ غَشِيَ أَبْوَابَهُمْ فَصَدَّقَهُمْ فِي كَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ وَلَا يَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ، وَمَنْ غَشِيَ أَبْوَابَهُمْ أَوْ لَمْ يَغْشَ فَلَمْ يُصَدِّقْهُمْ فِي كَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَهُوَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ وَسَيَرِدُ عَلَيَّ الْحَوْضَ، يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ الصَّلَاةُ بُرْهَانٌ وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، يَا كَعْبَ بْنَ عُجْرَةَ إِنَّهُ لَا يَرْبُو لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ إِلَّا كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ".**[2]

"وعَن أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ: نَعَمْ **"إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ"**[3]

إنَّ الذي وضع هذه السنن في النفوس والمجتمعات والدول هو الله ـ جل جلاله ـ عالم الغيب والشهادة، القاهر فوق عباده، المحيط علماً بكل شيء، والمقدر لكل شيء، والقادر على كل شيء، والحاكم على كل شيء، فلا يغتر أحد بانتفاش الباطل أو بتكبر الظالمين أو بالإملاء للكافرين أو تقلبهم في النعيم: ﴿... بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الرعد: 33-34]

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران: 196-198]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: 42-45]

---

(1) [جامع الترمذي/ 2168]

(2) [جامع الترمذي/ 614]

(3) [موطأ الإمام مالك/ 1864]

والذي يحصل في الغفلة عن هذه السنن الماضية في حياة البشر أن يظن البعض ـ في أي جيل أو قبيل ـ أنه استثناء من هذه القاعدة، وأنه الوحيد الذي تمكن في الأرض، وأنه ـ لحماقته وجهالته! ـ مخلد فيها، باق فيها، متمكن منها، لا يوجد من هو أقوى ولا أمكر منه! فينسى الحساب والجزاء، وينسى عاقبة الذين من قبله؛ فيختار متاع الدنيا، ويستجيب للإغواء، ويمضي في الصد عن سبيل الله، وابتغاء الاعوجاج لا الاستقامة.. حتى يأتي أمر الله بانتهاء عمر الإنسان أو عمر الأمم؛ وبداية دورة حضارية جديدة: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: 26]

وليست الغفلة عن سنن التغيير وحسب، بل الغفلة عن آيات الله في الكون، وفي المجتمعات، وفي الحياة الإنسانية عموماً.. والغفلة عن "الحكمة" من السراء والضراء، واستواء الأمر عند الفاسقين، والغفلة عن يد القدرة الإلهية المدبرة لكل صغيرة وكبيرة في هذا الكون[1]:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: 94-96]

والسنن ماضية، وإمكانية التغيير للفرد والجماعة قائمة، ومتاحة، ومبذولة، والله يهدي إليه من أناب، ويهدي القلوب المتفتحة للهدى، ومن يُكذِب فقد يُمتع إلى حين ثم يُضطر إلى عذاب غليظ وبئس المصير: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: 137-142]

وأما أهل الاستضعاف الصابرين المحتسبين المستعدين للخروج من هذا الاستضعاف إلى التمكين فإرادة الله لهم هي التمكين: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص: 5-6]

(1) [انظر مقال: "الزلازل.. والابتلاء الإلهي"]

فالله ـ جل جلاله ـ سيؤدب الفراعين والطغاة في الدنيا قبل الآخرة وسيعطي الفرصة للذين استُضعِفوا؛ ليأخذوا مكانهم وليتمحصوا أيضاً بابتلاء التمكين، هل سيصبرون على فتنته ومتاعه وزينته أم ستأخذهم الفتنة حيث أخذت الذين من قبلهم: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 140] ﴿... وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: 20]

وهذا وعد الله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ [النور: 55-57]

***

12- ولاية اليهود.

قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١ وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ٢ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣ وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ وَلَتَعۡلُنَّ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ٥ ثُمَّ رَدَدۡنَا لَكُمُ ٱلۡكَرَّةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَمۡدَدۡنَٰكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ أَكۡثَرَ نَفِيرًا ٦ إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُٓـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا ٧ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يَرۡحَمَكُمۡۚ وَإِنۡ عُدتُّمۡ عُدۡنَاۘ وَجَعَلۡنَا جَهَنَّمَ لِلۡكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ٨ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ٩ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَا ١٠﴾ [الإسراء: 1-10]

تحدثت سورة الإسراء الكريمة عن موضوعين في غاية الأهمية والتأسيس الإيماني والحضاري للأمة المسلمة:

الموضوع الأول: هيمنة الرسالة الإسلامية على كل الرسالات قبلها، ووراثتها للكتاب، فكان "المسجد الحرام" موطن رسالة إبراهيم وإسماعيل، و"المسجد الأقصى" موطن رسالة إسحاق ويعقوب ـ عليهم صلوات الله أجمعين ـ وصلاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكل الأنبياء قبله لدليل على هذه الوراثة وتمام الدين وكماله، وإرادة الله ـ جل جلاله ـ أن يُظهره على الدين كله، وقد كان بفضل الله، ثم بجهاد رسوله والراشدين من بعده.

والموضوع الثاني: هو علو بني إسرائيل ـ وإفسادهم في الأرض ـ وإدمانهم لهذا الفساد، وإشعالهم للحروب والفتن في الأرض كلها.. حتى صار علوهم كبيراً، وفسادهم عظيماً، ولا يمكن أن يقع هذا العلو في الأرض إلا والمسلمون في حالة من الضعف والتشرذم والتفرق والغثائية.. فلم يقع هذا العلو إلا بانهيار الوحدة السياسية للمسلمين بانهيار الدولة العثمانية ـ كآخر مظهر لهذه الوحدة بغض النظر عن أمراضها الداخلية ـ وتسلط العدو الصليبي على العالم الإسلامي؛ وتمكينه للمنافقين من حكم الأمة المسلمة، واستعبادها، وسرقة مقدراتها وثرواتها!

فوجود ما يسمى "دولة إسرائيل" اليوم هو بحد ذاته **دليل إدانة وعلامة خيانة للأنظمة التي تزعم الانتساب للإسلام**؛ فما تكوّنت هذه الدولة الملعونة إلا بخيانات هذه الأنظمة، ولا عاشت إلا باستمرار الخيانة والعمالة، حتى صار ـ في عصرنا هذا ـ أهم شرط ومُقَوم لاستمرار حكم الأنظمة العربية ـ وغير العربية ـ هو: رضى يهود والصهاينة ـ وضمان حمايتهم من غضبة الشعوب الإسلامية ـ ورضى أمريكا عن هذه الأنظمة!!

واليهود ـ عبدة الطاغوت ـ يلجؤون لكل صاحب قوة ليتعمدوا عليه في علوهم هذا، فهم والنصارى المعتدين أولياء بعض، وقد عملوا على إشاعة الربا والفساد والسحت في العالم كله، وعملوا على إشاعة الفواحش والإباحية والتعري في العالم كله، وعملوا على إشعال الحروب والفتن في كل مكان، وقد نجحوا في ذلك إلى حد كبير، وصار حكام بلادنا الإسلامية يطلبون رضاهم ويسارعون فيهم، بعدما سيطروا على مقاليد المال والسلطة والإعلام في الأماكن المؤثرة في العالم!

ومن ثم أمام هذا العلو، وأمام حالة الاستضعاف التي تعيشها الأمة المسلمة الآن ـ رغم توافر كل عوامل القوة لديها، من قوة الدين، ونور الكتاب، والثروات الهائلة، والجغرافيا الفريدة، والأمة الأكثر من ملياري مسلم ـ إلا أن هذا الاستضعاف **ليس سببه قلة الموارد** بل سببه: **الوهن، والغثائية، والانحراف عن نور الكتاب..**

إنَّ أي قوة تمثل عامل جذب أمام أي حالة استضعاف (هذا قانون من قوانين الحياة)، وعندما تكون هذه القوة في أيد يهود، ولا يقاوم أهل الاستضعاف هذا الجذب؛ فإنهم سيدخلون في ولاية يهود، ومن دخلها خسر الدنيا والآخرة.[1]

وإنَّ الخروج من الاستضعاف لا بد وحتماً أن يكون فيه مواجهة حتمية ومصيرية أمام "علو يهود" معركة حتمية صفرية ـ لا مفر منها ـ معركة ضريبتها **أهون التكاليف** ولا تقارن بأي حال من الأحوال أمام شر وعلو يهو، وإذ لم ندفع تكاليفها نحن فسيدفعها أبنائنا أو أحفادنا.. وهكذا حتى يتم استئصال هذا الورم السرطاني الخبيث من جسد الأمة المسلمة..

لا بد أن يكون ذلك **واضحاً ومحسوماً ومقطوعاً** به في حس المستضعفين وهم يستعدون لمعركة الخلاص، وتحرير الإنسانية من شر يهود الذي يطال الجنس البشري كله! يجب أن لا يهربوا من تكاليف هذا الجهاد، بل يستعدوا له.. ويتحينوا ويترقبوا الفرصة للقضاء على "دولة يهود"؛ والقضاء على وجودهم العسكري والسياسي في البلدان الإسلامية، وأما وجودهم "الاقتصادي" فلا بد أن يكون طاهراً من منظومة الربا، وتحت الرقابة المشددة..

فالإسلام تسامح مع المسالمين من أهل الكتاب شريطة أن لا يخونوا ولا يتآمروا ولا يُفسدوا في الأرض بعد إصلاحها.

---

(1) [انظر: درس "العداء السياسي" في كتاب "العقيدة السياسية في التصور الإسلامي"]

وجدير بالذكر أن هزيمة "دولة يهود" لا سيما في وجود الحروب الحديثة والهجينة الجوية والبحرية، وحروب المسيرات بأنواعها، والقذائف والصواريخ الفرط صوتية والباليستية، والحرب الإلكترونية والسيبرانية والذكاء الاصطناعي... إلخ، كل هذه الحروب ـ على أهميتها وضرورة تَمكن المسلمين منها ومن الإعداد لها ـ لا تغن عن "**الحرب البرية**" ودخول مئات الآلاف من المقاتلين المسلمين الذي يجاهدون في سبيل الله، ويتسابقون إلى جنة عرضها السموات والأرض، الحرب البرية التي تمكن من الأرض، **وتنقل المعركة للأرض التي اغتصبها العدو**، وتُطهر الأرض المقدسة من رجس ودنس يهود؛ وتستأصل هذا الورم السرطاني من جسد الأمة المسلمة، وتحرر المسجد الأقصى.[1]

وعلى المستضعفين في أي جيل وقبيل ومهما كانت الظروف أن يحذروا يهود وغدرهم وأساليبهم وإغوائهم وطرقهم، وأن يحذروا التعاون معهم، أو الدخول في ولايتهم، أو الدخول في حلف يكونون فيه سواء أكانوا بشكل ظاهر أم خفي.. وأن يعرفوا أن خلاصهم في ولاية الله ورسوله والذين آمنوا، ولا يركنوا إلى يهود، فهو ركون إلى النار وبئس المصير.[2]

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: 82]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: 51]

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: 138-139]

***

(1) [انظر مقال: "دولة يهود.. والملك داود"، وبحث: "ما بعد طوفان الأقصى"]

(2) [انظر كتاب: "معركتنا مع اليهود"]

13- التخلي عن حمل الرسالة، والرضى بالظلم.

قال تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾ [الحج: 24]

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [الحج: 31]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحج: 38- 41]

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ٤٨﴾ [الحج: 48]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج: 77-78]

بهذه الآيات المتتابعة في "سورة الحج" المباركة يتضح من هو المؤمن الحق، وما هي الغاية من التمكين، وما الحكمة والغاية من القتال، ولماذا قد يعلو حكم الظالمين لحين، وما هو واجب المؤمن في كل حين، وما هي رسالته في الحياة، ورسالة أبيه إبراهيم ـ عليه السلام ـ ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

بدأت الآيات بوصف المؤمنين الذين يعملون الصالحات، فقد هدوا إلى الطيب من القول؛ فكل أقوالهم طيبة باسم الله، خالصة لله، تحت راية الله، في سبيل الله، طيبة نيتهم، طيبة أقوالهم، فيها النور والحكمة والرشد والحق والعدل.. ومَن هذا حاله، فقد اهتدى ـ بفضل الله ـ إلى صراط الله المستقيم، صراط الحميد المحمود أفعاله، فالقول الطيب يتبعه الاستقامة والعمل الصالح، ولا انفصال في حس المؤمن بين القول والفعل؛ فهذا الانفصال في ميزان الله هو "المقت الأكبر"!

هذه الاستقامة تمضي بهم في طريق التوحيد الخالص حنفاء لله غير مشركين به، لا يشركون به طاغوتاً ولا أهواء ولا أباطيل، ومن يشرك بالله فقد تمزق أمره وضاع في السبل المتفرقة عن سبيله، كالذي يسقط من علو كبير فهو حتماً إلى هلاك.

ولماذا الشرك، ولماذا البحث عن شركاء مع الله؟! وأخطر الشركاء هو: الركون إلى الظالمين والطغاة والفاسدين والملأ المجرمين حيث يُظن فيهم النفع والضر، والأمن والنصير، والله هو الذي يدافع عن الذين آمنوا ـ الذين اهتدوا إلى الحق وإلى الاستقامة عليه ـ بينما الذين خانوا أمانة الكلمة، وأمانة قول الحق، وأمانة الاستقامة على قول الحق والعمل به، فهم مطرودون من رحمة الله ومن معية الله..

ولقد أذن الله لعباده المؤمنين بالقتال دفاعاً عن الدين والديار ـ باسم الله تحت راية الله في سبيل الله ـ ودفعاً للظلم والعدوان، وما العدوان على المؤمنين إلا بسبب إخلاص دينهم كله لله، وهذا مما يغري الطغاة والذين يزعمون الربوبية على الناس بالعدوان عليهم.. والله يدافع عن المؤمنين ويدفع بهم لمنع الفساد في الأرض، والله ناصر دينه وجنده وكتابه، وما على جنده الموحدين إلا أن ينصروا دين الله وكتابه ويعملوا باسمه وتحت رايته.. وغاية التمكين: إقامة الشعائر التعبدية ـ وأوضحها "الصلاة ـ وإقامة الشرائع التعبدية ـ ومثالها "الزكاة" ـ وإقامة الحكم الرباني بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الفرد والجماعة ونظم الحكم والحياة.. والله ـ جل جلاله ـ يملك عاقبة ونهاية كل أمر، ومن استقام على صراطه نال كل خير وبركة في الدنيا والآخرة.

في الاستضعاف: يصبح **مقاومة الفاسدين والذين يزعمون الربوبية على الناس مسألة وجودية للإيمان ذاته**[1]، ويصبح موالاة الطواغيت والفسدة المجرمين هو قول خبيث يؤدي إلى فعل خبيث وانحراف عن صراط الله المستقيم؛ يؤدي إلى صور من الشرك ـ والعياذ بالله ـ وخروج من معية الله إلى معية المجرمين، وعندها لا مولى ولا نصير، بل هو التيه والهلاك والضياع، والتخلي عن حمل الرسالة، والانحراف عن ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وعن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم..

إنَّ هؤلاء الطغاة والظالمين ما انتفشوا إلى حين إلا بإذن الله وحكمته، فلا يغرن أحد علوهم في الأرض إلى حين إنما هي سنة الله في "إملائهم وإنظارهم" إلى حين، والنصر والتمكين في النهاية للحق الذي يتولاه الله: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞ ١٨﴾ [الأنبياء: 18] ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨٢﴾ [يونس: 82]

وما على المؤمنين ـ وهم في الاستضعاف أو في التمكين أو في أي مرحلة من مراحل الدورة الحضارية ـ إلا التمسك بهذا الطريق:

العبادة الخالصة لله ـ سبحانه وتعالى ـ : اركعوا، واسجدوا، واعبدوا ربكم، وافعلوا الخير.. كل خير ـ فهو طريق الفلاح ـ ثم الجهاد.. الجهاد حق الجهاد في سبيل الله دفعاً لكل باطل وشر وظلم وعدوان.

(1) [انظر كتاب: "توحيد الربوبية، ومفهوم الحاكمية"]

لقد اصطفى الله هذه الأمة وجعلها حاملة الرسالة، وهو اصطفاء الإيمان والعمل الصالح لا اصطفاء الجنس والقوم، وفيها الرسالة الخاتمة ـ تامة كاملة عظيمة لا حرج فيها ـ هذه هي ملة إبراهيم، ملة التوحيد الخالص، المتبرئ والمحارب للشرك، ملة الذين أسلموا دينهم لله، وأخلصوا له النية والعمل، وهذا الرسول الكريم شهيداً على هذه الأمة بما أتمه من بلاغ وحجة وجهاد، وهذه الأمة شهيدة على البشرية كلها بما تحمله من رسالة؛ وعليها المضي على سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في البلاغ وإقامة الحجة (قولاً وعملاً)، والجهاد في سبيل الله من أجل هذه الشهادة على البشرية والبلاغ للناس.. والغاية في كل مرحلة وجهاد: **إقامة الدين كله لله، وإخلاص العبادة** (إقامة الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر)، **وإقامة الشرع** (إيتاء الزكاة وما يلزمها من نظام حكم عادل قائم على الشرع الإلهي)، وما يقتضيها من نظام سياسي عادل قائم على الحق والعدل والشورى.. والاعتصام بالله، والاجتماع عليه، والقيام باسمه، وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير.

هذه الآيات الكريمات هي ـ بحد ذاتها ـ منهاج حياة، وطريق فلاح وسعادة وفوز في الدنيا والآخرة، وما أحوج المستضعَفين والمتمكنين إليها، وإلى تدبرها، وإلى العمل بها وبمقتضياتها، والتمسك بها بقوة فالخروج عنها خروج إلى الهلاك والعياذ بالله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦ لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٥٧﴾ [النور: 55-57]

***

14- اتخاذ العدو صديقاً.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان: 27-31]

جاء كل رسول من عند الله لإقرار ربوبية الله وحاكميته في أرضه.. كل رسول جاء بالتوحيد الخالص والعبودية التامة لله ـ جل جلاله ـ وكل رسول من عند الله وجد له أعداء من المجرمين يرفضون هذه الربوبية، ويردون شريعة الله إلى أهوائهم: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾ [الفرقان: 43-44]

وطافت "سورة الفرقان" المباركة على نوعية من هؤلاء المجرمين المكذبين؛ لتُسلي عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بينما المجرمين من قومه يُكذبونه، وإنها لسنة الدعوات والرسل أن يقف هؤلاء المجرمين لدعوة الرسول وخلفائه الراشدين من بعده، يقفون لها لأنها تصطدم بمصالحهم وأهوائهم وأطماعهم وسلطتهم؛ لأنها تحرر الناس من عبودية الناس إلى عبودية رب الناس، وتردهم أحراراً كرماء لا عبيداً للطغاة، إلى الفطرة السوية، والشريعة الإلهية.. تردهم إلى الحق والعدل الرباني، فلا حق إلا ما أحقه الله ـ جل جلاله ـ بكلماته: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس: 82] فكل حق إنما يستمد سلطانه من الله، وكلماته ووحيه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: 62] ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: 32]

فالمسلم الذي ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: 22] هو الذي يمضي بنور الله، باسم الله، على منهج الله وصراط الله المستقيم.

هؤلاء المجرمين من الملأ المترفين، والحكام الفاسدين، ورجال الدين الدجالين، وأصحاب الشهوات، والجماهير الراضية بالفسق حتى فسقت؛ كل هؤلاء سيقفون في وجه كل داعية للحق، وإلى صراط مستقيم، ولا بد لأهل هذه الدعوة، وحملة هذه الرسالة أن يدركوا طبيعة هؤلاء المجرمين، وحربهم، وطغيانهم، ومن ثم **الاستعداد لمواجهتهم..**

وقد استهلت الآيات العبرة من نهاية الطريق وي كأنه هو البداية.. بدأته هناك حيث الدار الآخرة، وحيث الظالم يقف يعض أصابع الندم، ويكاد يموت من الحسرة أنه لم يتخذ مع الرسول سبيلا ـ وقد كان

مبذولاً له ـ وسبيل الرسول هو: سبيل الرشد. والظالم: هو من كل سلك غير سبيل الرسول، وشاق الله ورسوله من بعد ما تبين له الهدى..

لقد اتخذ طرقاً أخرى متفرقة عن سبيله، لا هادي له فيها إلا أهواء فلان وفلان.. اتخذه بديلاً عن رسول الله الهادي بنور الله إلى سبيل الراشد! ومن لم يتخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سبيلاً للرشد والهداية فهو حتماً إلى ضلال وخسران.. وما الهداية والنصرة إلا من عند الله العزيز الحكيم.

والقوم الظالمين: هم كل من هجر القرآن، وهجر تدبره، والعمل به، وإقامته شريعته، وحمل رسالته: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٠ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم: 29-32]

فهما طريقان: إما طريق الرسول، وإما طريق الطغاة. إما طريق القرآن، وإما طريق الأهواء. وعلى هذا الأساس يتحدد ولاء المؤمن فرداً وجماعة وحكماً ونظاماً.

في الاستضعاف ـ وفي التمكين كذلك ـ عندما تختل الموازين، وتضيع البوصلة الربانية، ونهجر القرآن، ونتخذ فلاناً خليلاً من دون الله ورسوله.. **يصبح "العدو" صديقاً! ويغدو القوم المجرمون إخوة وأحباء**، ومن ثم نضيع في سبل متفرقة عن سبيل الله، **ويتسلط علينا العدو، وينقض علينا**، ويتكالب علينا المجرمون من كل حدب وصوب! يسلبون منا ديننا وهويتنا وشريعتنا وثقافتنا ثم يسلبون أرضنا وثرواتنا وأبنائنا!

في الاستضعاف ـ وعندما يتسلط القوم المجرمون ـ يحاول البعض تجميل صورتهم، والتهوين من عدوانهم، والتغاضي عن إجرامهم، والتماس الأعذار لهم! وبدلاً عن إعداد العدة لمواجهتهم، والبراءة منهم في كل حال، وتحين الفرصة لقطع دابرهم، إذا ببعض **المستضعفين يسارع فيهم، ويجعلهم إخوة الوطن، أو الأرض، أو القوم، أو الجنس، أو يتعامل معهم بهوان واستكانة وذلة!** أو يولي وجهه شطر الأعداء لأنهم أقوياء، فيتخذهم أولياء من دون الله! ويتناسى "سنة الأنبياء" أن لكل حق أعداء ومجرمين.. ويتخذ من هؤلاء المجرمين سادة وكبراء يقدمونهم على طاعة الله ورسوله: ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَاْ ٦٦ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَاْ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ٦٨﴾ [الأحزاب: 66-68]

والمعركة مع هؤلاء المجرمين حتمية لا مفر منها، ولا بد من مواجهتهم وإلا ابتلع هؤلاء المجرمون المستضعفين وجعلوهم مثلهم في الإجرام، ودون حتى أن يكون لهم حظ ونصيب في هذه الحياة؛ فيأتون يوم القيامة يعضون أصابع الحسرة والندم أنهم لم يتخذوا مع الرسول سبيلاً، ولم يمضوا على سنة الأنبياء في مواجهة القوم المجرمين.

***

15- مخالفة إرادة الله.

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: 5-6]

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣٨ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ [القصص: 38-40]

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥٨ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ۝٥٩﴾ [القصص: 58-59]

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧﴾ [القصص: 77]

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ [القصص: 83]

عرضت "سورة القصص" المباركة حالة الاستضعاف يقابلها حالة العلو في الأرض بغير الحق.. وافتتحت السورة المباركة ببيان إرادة الله ـ جل جلاله ـ في تمكين المستضعفين في الأرض، وجعلهم هم الأئمة الوارثين لها، وما أهون ذلك على الله.. بينما الفراعين العتاة الجبابرة يستكبرون في الأرض، ويحاولون تعبيد الناس لهم..

لقد أهلك الله فرعون وقومه وجنده بستار الحب ألقاه على زوجة فرعون للطفل الرضيع المعرض للذبح! فنشأ موسى ـ عليه السلام ـ في قلب القصر الفرعوني ترعاه يد الله ويُصنع على عينه سبحانه وتعالى.

ولكن إرادة الله هذه لأي أنواع المستضعَفين؟ هل هي للذين رضوا بحياة الذل والهوان، ورضوا بالأوضاع التي أنشاءها الفراعين، أم هي للذين أخلصوا دينهم لله، ورفضوا الخضوع لأي ربوبية غير ربوبية الله سبحانه وتعالى؟

إنها قطعاً للذين أخلصوا دينهم لله، بينما من لم يخلص دينه لله سواء أكان مستضعَف أو مُمكن فهو في النار والعياذ بالله.

إنَّ استكبار الفراعين وجنودهم وملئهم ما هو إلا ابتلاء للمستضعفين **ليصبروا وليخلصوا دينهم لله، وليجاهدوا** هؤلاء المستكبرين في الأرض، وليتحمّلوا الأذى في سبيل الله، وهو ابتلاء للفراعين وملئهم ـ وأصحاب كل قوة ـ أن يتواضعوا لله ويخلصوا دينهم لله.. وقد كان قارون من قوم موسى ـ وليس من الفراعنة ـ وقد ابتلاه الله بقوة المال والغنى، ولكنه طغى وآثَر الحياة الدنيا فكان من أمثال فرعون وهامان: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبًا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾ [العنكبوت: 39-40]

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾ [النازعات: 37-41]

إنَّ إرادة الله النافذة والواقعة بالتمكين للمستضعفين لا تكون إلا **لمن ابتغى الله والدار الآخرة، ولم يُرد في الأرض علواً ولا فساداً، وكان من المتقين..** ولم يكن من الظالمين، ولا من المفسدين، ولا من المستكبرين، ولا من الغافلين، ولا من المعاندين.

ومن يخالف هذه الإرادة الإلهية ـ وهو مستضعف ـ فلا يشكو الاستضعاف، ولا يشكو الظالمين ـ وهو منهم ـ ولا يلومن إلا نفسه.

فالتمكين قادم بإذن الله، والسؤال: ليس متى؟ ولكن.. هل نستحقه، وهل نحن مُؤهلون له؟ وكيف سنكون عندما يأتي التمكين، وماذا سنفعل؟

***

16- الغرور بالقوة المادية.

قال تعالى: ﴿... وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۡ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٣٥ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾ [سبأ: 31- 39]

تحدثت الآيات الكريمات عن حال القوم الظالمين، وقد كانوا على قسمين، القسم الأول: المستكبرون. والقسم الثاني: المستضعفون.

وها هم عند ربهم ـ يوم القيامة ـ يرد بعضهم على بعض، ويدفع كل فريق التهمة عن نفسه!

أما **المستضعَفون**: فقد اتهموا المستكبرين والمترفين والماكرين بأنهم سبب ضلالهم، ولولاهم لكانوا مؤمنين!

وأما **المستكبرون**: فيتبرؤون من تهمة "إضلال المستضعفين"، وأنهم لم يصدونهم عن الهدى بعد إذ جاءهم، وإن المستضعفين إنما ردوا الهدى لأنهم كانوا من المجرمين! بل كانوا يد الإجرام الباطشة!

فيرد المستضعفون التهمة على المستكبرين مرة ثانية: إن الذي كان يمكر بالليل والنهار لاستعباد المستضعفين وإذلالهم وقهرهم والسيطرة عليهم إنما كان المستكبرين، والذي نشر الظلم والفساد والبغي والإغواء والإضلال والمنكرات إنما كان المستكبرين، وإنهم أمروهم أن يكفروا بالله وبآياته وبرسوله وبشريعته وبأحكامه، وأن يجعلوا له أنداداً.. كل ذلك من صنع هؤلاء المستكبرين، هذه الأنداد قد تكون الأهواء والتشريعات والموازين والقيم الباطلة والأوثان والأصنام، والمصالح والأطماع، والمظالم والمفاسد... إلخ:

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ [فاطر: 43]

ويجيء التعقيب الإلهي على هؤلاء الظالمين (المستكبرين والمستضعفين معاً) بأنهم في العذاب جميعاً والأغلال في أعناقهم وهم في حسرة وندامة جزاء بما قدمت أيديهم، وما ربك بظلام للعبيد.

إنَّ القوة المادية العارية من هداية الله، وشريعة الله، وصراط الله المستقيم تكون لعنة وفتنة على الجميع:

على **المستكبرين**: حين يغترون بالقوى المادية، ويريدون أن يصرفوا لأنفسهم **صور الربوبية** التي لا تكون إلا لله؛ لتكون لأنفسهم وأهوائهم وأطماعهم، وتعبيد الناس لذواتهم أو لأهوائهم. لقد ظنوا أن كثرة الأموال والأولاد علامة رضى، وباقية لهم أبداً، بينما الله ـ جل جلاله ـ يبسطها ويقدرها (يضيقها) على من يشاء من عباده لحكمة عنده سبحانه، وليست هي دليل رضى؛ ولا تقرب الأموال والأولاد أحداً من الله.

وتكون لعنة على **المستضعفين**: حين يرون في هؤلاء المستكبرين القوة والمنعة والسلطان؛ فيركنوا إليهم ويعاونونهم على ظلمهم وبغيهم وكفرهم وإفسادهم.. فالمستكبرون يمكرون بالليل والنهار لرد الحق والمكر بأهله، وبالجماهير.. وعندما يستجيب المستضعفون لهذا المكر فيكونون من جنده وأهله وأتباعه وأعوانه فقد أصبحوا من القوم الظالمين ـ وإن كانوا بعد مازالوا مستضعفين ـ ولم يرتفعوا إلى مرتبة المستكبرين؛ لكنهم جند المستكبرين وردائهم، ورضوا بأن يكونوا ذيولاً، بعدما عطلوا إدراكهم، وباعوا حريتهم وإرادتهم وكرامتهم! ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر: 47-48]

جاء في الحديث الشريف: "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ قَالَ: "**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**"، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ، يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: **إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**"[1]

"**بَطَرُ الْحَقِّ**": دفع الحق ورفضه استعلاءً وجحوداً، و"**غَمْطُ النَّاسِ**": احتقار الآخرين وازدائهم بسبب قلة ما بأيديهم من قوة مادية.

ومن مظاهر الغرور بالقوة المادية (العسكرية أو الطاغوتية) أن يظن الظالم أن قوته تحميه من العقاب، فيتمادى في طغيانه: "عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ : "**إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}**"[2]

---

(1) [صحيح مسلم/ 92]

(2) [صحيح البخاري/ 4686]

إنَّ كثرة الأموال والأولاد عند المستكبرين، وطمع المستضعفين في مثلها، وغرور الجميع بالقوى المادية ليس هو الذي يقرب العباد إلى الله، كما لا ينجيهم من عذاب الله عند ظلمهم.. إنما الذي يقربهم إلى الله هو: **الإيمان والعمل الصالح.**

الإيمان الذي يُمَكِن لآيات الله في الأرض إيماناً وعملاً وتطبيقاً ونظاماً وحقاً وعدلاً، وأما الذين يسعون في آيات الله معاجزين بالإعراض عنها، وبالمكر بالمصلحين والصالحين، وبالافتتان بالقوى المادية وعبادتها، والامتناع من الاستسلام لشرع الله فيها، وإيثارها على كتاب الله، ومنهج الله.. فـ ﴿أولئك في العذاب محضرون﴾.

وفي مناسبة الأموال والأولاد والافتتان والغرور بها، يأتي التعقيب بضرب المثل للعمل الصالح بالإنفاق في سبيل الله: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يُخلفه﴾، ليدل على الطريق وهو: **الإيمان الخالص، والعمل الصالح، والسعي في آيات الله بالدعوة والتمكين، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وليس الغرور بالدنيا ولا بزينتها:**

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: 5-6]

***

17- التعايش مع البغي.

قال تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ٤٣﴾ [الشورى: 36-43]

تناولت هذه الآيات الكريمات من "سورة الشورى" صفات المؤمنين، لتُوصل للتربية الإيمانية للفرد والأمة المسلمة، وتحدد القيم والموازين الربانية الصحيحة، التي من خلالها ينشأ الفكر والسلوك، وينبثق النظام والدولة..

فبدأت الآيات ببيان أن كل شيء موهوب من الله في هذه الدنيا فهو "متاع الحياة الدنيا" هكذا وصفه بما يضمره من معنى الفناء والانتهاء.. والتدني أمام نعيم الآخرة التي هي: ﴿خيرٌ وأبقى﴾ فكل متاع الدنيا ولو عاش صاحبه منعماً به ألف سنة هو قليل في ميزان الآخرة، هذا الخير الباقي إنما هو للذين آمنوا، واحتكموا إلى كتاب ربهم: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ١٠﴾ [الشورى: 10]، واتبعوا شرع ربهم: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى: 13]، واستقاموا على صراطه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ١٥﴾ [الشورى: 15]، وقد سلكوا ذلك الطريق، واتبعوا هذا المنهج، وهم متوكلون على ربهم، مسلمون له، معتمدون على قوته ونصره وولايته، مستفرغون جهدهم ووسعهم، ولا يركنون إلا إلى ركن الله المتين..

وهؤلاء في سلوكهم التربوي والأخلاقي والسلوكي لا يقعون في كبائر الإثم والفواحش التي تُفسد القلوب، وتُخرجهم من معية الله سبحانه وتعالى، كما أنهم أصحاب اتزان نفسي فلا يغضبون أنفة ولا كبراً ولا بطراً ولا جاهلية، إنما يغضبون لله ورسوله ودينه..

وهؤلاء استجابوا لنداء الله لهم وهو يناديهم: ﴿يا أيها الذين آمنوا... ﴾ فتخشع قلوبهم لذكر الله، وتستجيب لأمر الله، ونهيه.. وقد أقاموا صلاتهم واتصالهم بربهم وذكرهم له.. الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر،

وتبقي قلوبهم نابضة بذكر الله أناء الليل وأطراف النهار..

﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ فالشورى ركيزة أساسية لاجتماع الأمة المسلمة، كل أمرهم شورى.. لا استبداد غاشم، ولا حمية جاهلية، ولا أنفة باطلة، ولا حقد، ولا بغضاء، ولا أطماع، ولا جاهلية، قلوب متفتحة للهدى، مجتمعة على حب الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونصرة دينه وأمته، لا تتعصب بحماقة، ولا تمضي بجهالة، بل تبحث عن أفضل الرأي، وأحلم الفكر، وأضبط الأمر، وأحكم القول؛ ليكون على أفضل وأتم صورة، ثم يتحمل كل فرد دوره ومسؤوليته.. ثم جاء الإنفاق في سبيل الله كأحد تكاليف ومسؤوليات الفرد أمام الجماعة.

وبعد بيان قيمة متاع الدنيا، وحسن التوكل على الله، وضبط السلوك باجتناب الكبائر والفواحش، وضبط الانفعالات، والاستجابة لأمر الله، والمضي بشورى وحكمة، والإنفاق في سبيل الله.. فقد تمهد الطريق **للانتصار من البغي.**

وكل هذه الآيات مكية ـ حيث الاستضعاف ـ ومع ذلك كانت تربيهم هذه التربية الربانية، **تربيهم على الانتصار من البغي، وعدم الخضوع للظلم**، رغم أنه لم يُأذن لهم بقتال حينها، لظروف قد تكون بسبب: استكمال التربية والعدة، أو تجنب أن يكون هناك معركة في بيت كل مَن أسلم مع أهله الذين لم يسلموا بعد، حيث المسالمة في هذه الحالة أقرب لكسب القلوب من التحدي السافر، أو ترك الأمر للنخوة العربية حينها التي تأنف من الظلم ـ مثلما نقض بعضهم صحيفة مقاطعة شعب أبي طالب لما فيها من ظلم! ـ أو تخليص نية المؤمنين من الانتقام لذواتهم، وإنما الجهاد في سبيل الله، أو كل هذه الأسباب مجتمعة..

كل هذه الملابسات لم تمنع من بيان التربية الربانية وترسيخها، والتأكيد على أن المسلم **لا يقبل الضيم، ولا يرضى بالذل، ولا يرى الباطل يسرح ويمرح ويعلو ثم يتركه ويمضي..** بل عليه **الانتصار من كل بغي،** وقع عليه أو على أمته؛ حتى لا تفسد فطرته، ولا تفسد جماعته.. الانتصار باسم الله في سبيل الله، ولا عجب إذن أن يكون كذلك أول ما نزل من القرآن ـ في "سورة المزمل" ـ ذكر القتال في سبيل الله: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۝٢٠﴾ [المزمل: 20]

ثم يمضي خطوة أخرى بعد الانتصار من كل بغي، ورد السيئة بقوة وبأس.. فيُبقي على "العفو والإصلاح" من منطق القوة، وعلو الحق، وتسامحه بعد غلبته، لا قبلها وإلا كان ضعفاً وذلة!

فالأساس **الانتصار من كل ظالم ومن كل ظلم..** فإنما الحرب على الذين يظلمون الناس، ويبغون في الأرض بغير الحق، وهو انتصار لله، والصبر على تكاليف الانتصار من البغي، والمغفرة والتسامح بعد علو الحق هو سبيل الرشد، وذلك هو الحزم والحق والرحمة.

في الاستضعاف، وفي حالة التربية غير الربانية، في التربية الفاسدة.. يتربى البعض على: **التهاون مع الظلم، والتعايش مع البغي، والتغافل عن دور الفرد والجماعة في هذه المواجهة، ومن ثم يزداد الظلم والفساد والبغي فلا مُقاوم له**، وتنقلب الآية:

فنرى متاع الدنيا هو الغاية الكبرى، ونرى إشاعة الكبائر والفواحش من كل شكل ولون، ونرى ضياع الصلاة، ونرى الشح والبخل، ونرى الاستبداد الغشوم الظالم، والتحاكم إلى الأهواء، والخروج من الشريعة، ونرى البغضاء والحنق والتحاسد والغل، والضعف والذل، والبغي والجور! وهذا جانب من آثار الغفلة عن ذكر الله في النية والفكر والشعور والسلوك والتربية والنظام والحكم: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٧﴾ [الزخرف: 36-37]

هذه التربية الفاسدة تُخرّج القوم الفاسقين المنحرفين؛ وتجعل الطغاة يستخفون ويستحقرون ويستعبدون ويستهزئون بهؤلاء المستضعفين، ويجعلونهم وقوداً لطغيانهم وعدوانهم وإفسادهم ـ في الدنيا ـ كما صنع فرعون مع قومه: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤﴾ [الزخرف: 54] ثم في الآخرة يُوردهم النار والعياذ بالله؛ فيكونون **وقوداً في الدنيا والآخرة**، ومن هذا يتجلى خطر الاستضعاف المُذل، ويتبين أن لا مفر من مواجهته.[1]

وطريق الخروج من الاستضعاف يبدأ ـ كما بدأ أول مرة ـ بهذه **التربية الربانية**، وبهذا النور الذي يبدد الظلمات، ويهدي الحيارى، ويضع المستضعفين على سبيل الرشد والنصر والتمكين بإذن الله.

***

(1) [انظر درس: "الاستضعاف المقاوِم، والاستضعاف المُذِل"، في كتاب: "العقيدة السياسية في التصور الإسلامي"]

أمراض التمكين

1- التولي عن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ ١٤٣﴾ [البقرة: 143]

أراد الله ـ سبحانه ـ للأمة المسلمة أن تكون هي الأمة الشاهدة العادلة العالمة الحاملة للرسالة، وحتى تستحق ذلك يجب عليها اتباع وطاعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كل شيء، والخروج من مألوفاتها وأهوائها إلى مراد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وقد صَلّت هذه الأمة إلى بيت المقدس ـ حيث أمر الله حينها ـ ثم صلّت إلى البيت الحرام ـ حيث أمرها الله ـ وهي تطيع الله ورسوله في كل أمرها، ولا تنقلب على عقبيها إن وجدت ما لا يوافق هواها أو عاداتها، بل هي **مستسلمة لله بالكلية. فهي تدور مع كتاب الله حيث دار..**

جاء في الحديث الشريف: "عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلّم ـ يَقُولُ: **"خُذُوا الْعَطَاءَ مَا دَامَ عَطَاءً، فَإِذَا صَارَ رِشْوَةً عَلَى الدِّينِ فَلا تَأْخُذُوهُ، وَلَسْتُمْ بِتَارِكِيهِ يَمْنَعُكُمُ الْفَقْرُ وَالْحَاجَةُ، أَلا أَنَّ رَحَى الإِسْلامِ دَائِرَةٌ فَدُورُوا مَعَ الْكِتَابِ حَيْثُ دَارَ، أَلا إِنَّ الْكِتَابَ وَالسُّلْطَانَ سَيَفْتَرِقَانِ فَلا تُفَارِقُوا الْكِتَابَ، أَلا إِنَّهُ سَيَكُونُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ يَقْضُونَ لأَنْفُسِهِمْ مَا لا يَقْضُونَ لَكُمْ، إِنْ عَصَيْتُمُوهُمْ قَتَلُوكُمْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ أَضَلُّوكُمْ"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: "كَمَا صَنَعَ أَصْحَابُ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، نُشِرُوا بِالْمَنَاشِيرِ، وَحُمِلُوا عَلَى الْخَشَبِ، مَوْتٌ فِي طَاعَةِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ"**[1]

في التمكين: يطمع البعض في السلطة، والجاه، والمنصب.. ويطلبها بغير رضى الله ـ جل جلاله ـ ويحكم بغير سنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويكون شرط استمراره في المنصب والسلطة مخالفة الكتاب، واتباع الأهواء! والحديث يُحذر الأمة من الركون إلى الذين تولوا عن طاعة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحذرهم أن يتحول عطاء السلطان إلى رشوة على الدين، وعلى قول الحق عند ذي سلطان جائر، ويأمرهم بالتمسك بالكتاب مهما ابتعد عنه السلطان الحاكم، ومهما خالفه..

وإنْ تسلط هؤلاء الأمراء بالجبروت وبقتل الصالحين فلا مفارقة للكتاب، ولو كان الجزاء النشر بالمناشير، وهذا الحديث يوضح مدى **مسؤولية الأمة السياسية والاجتماعية**، وإنها الأمة الشاهدة التي لا تفارق الكتاب أبداً، ولا تفارق شهادة الحق أبداً، مهما بلغ جور السلطان.

(1) [حلية الأولياء لأبي نعيم/ 6895]

وهذا الحديث دعوة للحياة في طاعة الله، واتباع سنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالأمر ـ بالنسبة للأمة المسلمة ـ لا يتوقف عند شهادة الحق في وجه كل ظالم وجائر، فهذا قد يُبرئ الأفراد، لكن تبقى مسؤولية الأمة في **الأخذ على يد الظالم، وإبعاد السفهاء، وذوي الأطماع والأهواء، وإعلاء حاكمية وسيادة الكتاب مهما كلفها ذلك من أكلاف**؛ فهذا سبب إخراج الله ـ جل جلاله ـ هذه الأمة للناس: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: 110]

***

2- أكل أموال الناس بالباطل.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [البقرة: 188]

﴿وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: 195]

في مرحلة التمكين تكثر الأموال، ويكثر متاع الحياة الدنيا وزينتها، ويتعاظم التنافس عليها؛ فيدفع البعض إلى الجرأة في أكل الأموال بالباطل، والرشوة في الحكم، والمحاباة في القضاء.

وكلما يكثر المال كلما يزداد الحرص عليه، وجمعه من باطل وحرام.. وهو بذلك هَلكة للإنسان، وعلاجه: **تَحري الحلال، والإنفاق في سبيل الله.** وبين هاتين الآيتين ـ في "سورة البقرة" ـ الحث على **"القتال في سبيل الله"**، ومنع الفتنة في الأرض.

وفي تفسيرها: "عَن أَسْلَمُ أَبُو عِمْرَانَ مَوْلًى لِكِنْدَةَ، قَالَ: كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّومِ، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا، مِنَ الرُّومِ، وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِثْلُهُ، أَوْ أَكْثَرُ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلّم ـ فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ، حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ، فَصَاحَ بِهِ النَّاسُ، وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، تُلْقِي بِيَدِكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ، فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ:

"أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ، إِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، إِنَّا لَمَّا أَعَزَّ اللَّهُ الإِسْلامَ وَكَثَّرَ نَاصِرِيهِ، قُلْنَا بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا، مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلّم ـ إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الإِسْلامَ وَكَثَّرَ نَاصِرِيهِ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنَّا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلّم ـ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا: ﴿**وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾، **فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الإِقَامَةَ فِي أَمْوَالِنَا، وَإِصْلاحَهَا، وَتَرْكَنَا الْغَزْوَ**"، قَالَ: وَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ شَاخِصًا، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ"[1]

وأكل أموال الناس بالباطل له صور كثيرة؛ منها: الرشوة، والسحت، والربا، والقمار، والضرائب الجائرة، والاحتكار، والمضاربات الوهمية، والغبن، والفساد، وكلها كبائر عظيمة تدمر الاقتصاد الإسلامي، وتدمر الأخلاق وتشيع الفواحش.. والأنظمة الجائرة تعيش على المال الحرام، وسرقة الثروات، وتُقرب الفاسدين، وتشجع الظالمين؛ فيتظالم الناس فيما بينهم؛ ويتلوث الجميع؛ فلا يقوى أحد على مواجهة الظلم والظالمين..

(1) [صحيح ابن حبان/ 4711 ، ومسند أبي داود الطيالسي/ 600]

وقد أذن الله بالحرب على الربا لشدة آثاره المدمرة للمجتمع وللنظام السياسي والاقتصادي والأخلاقي: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩﴾ [البقرة: 278-279]

ودور الفرد: هو قول الحق، وعدم مفارقة الكتاب ولو كان فيها موته، فالطاعة إنما هي في المعروف من الدين والحق.. وإن تَسلّط ظالم فطاعته إنما تكون في شأن أمر الله به، كما يجب عصيانه في معصية الله.[1]

ودور المجتمع: هو إزالة النظم الجائرة الباغية الفاسدة من جذورها، وتطهير المجتمع من كل ظلم، ومن كل ظالم، ومن كل مال حرام، وتمكين المعروف، وإزالة المنكر.

***

(1) كما قال رجل لعبد الله بن عمرو بن العاص: "هَذَا ابْنُ عَمِّكَ، يَأْمُرُنَا أَنْ نَأْكُلَ أَمْوَالَنَا بَيْنَنَا بِالْبَاطِلِ، وَأَنْ نَقْتُلَ أَنْفُسَنَا، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، قَالَ: فَجَمَعَ يَدَيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَلَى جَبْهَتِهِ ثُمَّ نَكَسَ هُنَيْهَةً، ثُمَّ قَالَ (عبدالله بن عمرو رضي الله عنه): **أَطِعْهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَاعْصِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ.**" [مصنف ابن أبي شيبة/ (8: 585)، السنن الكبرى للبيهقي/ (8 : 168)]

3- الإفساد في الأرض (تولي المنافقين مقاليد الحكم والتوجيه)

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٠٩﴾ [البقرة: 204-209]

ترسم الآيات الكريمات حالة النفس المنافقة الفاسدة التي تتقن فن الظاهر من حلاوة اللسان، والكلام المعسول، والوعود البراقة، ولا تتورع عن إشهاد الله ـ سبحانه ـ على كلامها هذا، بينما حقيقتها هي الفجور والخصومة واللدد فيها.. وإذا تولت مقاليد الحكم والسلطان سعت في الأرض بالفساد، وإهلاك المقدرات والثروات، وتقطيع الأرحام، وتضييع المجتمع المسلم.. وقد مات قلبها عن خشية الله والحذر من جنابه، فهي مستكبرة عن النصح، رادة للحق! وهذه النفس مهادها النار والعياذ بالله.

والصورة الصحيحة هي: النفس الخالصة التامة لله، التي تعمل ابتغاء مرضاة الله، وتقطع الطريق على شيطان النفاق؛ فتدخل في سلم الله ورأفة الله رحمة الله.

ويحذرها الله ـ سبحانه ـ من خطر الزلل في طريق الشيطان والنفاق، ولتستعصم بعزة الله، وتتيقن من حكمته جل جلاله.

في التمكين: قد يصل المنافقون إلى سدة الحكم ـ كما في عصرنا هذا ـ وكما كان في بعض العصور السابقة، وولايتهم بلاء على الأمة المسلمة، هل ستمضي مع حكم المنافقين؟ أم ستجاهدهم وتقطع دابرهم؟ ولا يتولى المنافقون الحكم والسلطة إلا والأمة في حالة من الغثائية والتيه والضعف، وقد نبت فيها النفاق أيضاً. فالإيمان هو الحصن الحصين ضد النفاق، فالإيمان يطرد النفاق، وإن علو النفاق هو علامة على غياب الإيمان، والركون إلى المنافقين.[1]

والطريق للفرد والجماعة: الخروج من الغثائية إلى الفاعلية، ومن النفاق إلى الإيمان، ومن الوهن إلى قوة اليقين، ومن التيه إلى هداية الله؛ وعندها ستعرف المنافقين، وستستعد لجهاد المنافقين.

***

(1) [انظر مبحث "طاعة أولي النفاق" من فصل: آلية شرعنة الاستبداد، في كتاب: "أمراض الاستبداد.. الجزء الثالث"]

4- الاستهزاء بآيات الله وأحكامه.

قال تعالى: ﴿... وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٣١﴾ [البقرة: 231]

الشعور بالاستغناء ـ بعد التمكين ـ من الحاجة لكتاب الله، بل واتخاذه وسيلة لشرعنة الباطل والعياذ بالله! **فيُتخذ مال الله دُوَلاً، ودين الله دَخَلاً، وعباد الله خولاً!**[1] والمعنى:

مال الله دُوَلًا: "الدُّوَل" هو الشيء الذي يتداوله الناس بينهم بالتناوب. والمعنى هنا: أن أموال الأمة وثرواتها العامة (التي هي مال الله) تصبح حكراً ودائرةً بين طبقة الأغنياء والمسؤولين فقط، يحرمون منها عامة الشعب، وهو مصداق الآية: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾.

دين الله دَخَلًا: "الدَّخَل" هو الغش، والمكر، والخديعة، والفساد الداخلي. والمعنى: أن الدين لا يُعاد صيانته أو تطبيقه بصدق، بل يُستغل كأداة للمكر السياسي، أو يتم تشويهه وتطويعه لخدمة مصالح الحكام وتبرير أفعالهم بالباطل.

عباد الله خَوَلًا: "الخَوَل" هُم الخدم، والعبيد، والحَشَم. والمقصود: أن المواطنين والناس الأحرار يُستعبدون ويُذلون حتى يتعامل معهم المتسلطون كأنهم رقيق أو ممتلكات خاصة لا حقوق لهم ولا كرامة.

وكلها من علامات الطغيان والإفساد والصد عن سبيل الله!

ولا يمكن للأمة المسلمة أن تظل تحمل "**حقيقة**" هذا الإسلام وهي تتخذ آيات الله هزوا، أو تنحرف عن أحكامه، أو تنسلخ من آياته، بل إنها بهذا الفعل **تفقد "نعمة التمكين" وتفقد وظيفتها التي من أجلها أخرجها الله للناس، بل وتفقد إيمانها ذاته!** ولماذا ابتداء تستهزأ بآيات الله، والله هو الذي مكّن لها في الأرض؟!

ومن صور الاستهزاء: التلاعب بأحكام الشريعة، ونبذها، والخروج عن مقاصدها وحدودها، واتباع الجاهلية، والانسلاخ من الصبغة والهوية الإسلامية؛ وهو خروج من الحكمة إلى السفه والحمق، ومن النور إلى الظلمات، ومن التقوى إلى الفسق. وعلاج ذلك هو:

العودة إلى كتاب الله، وإعلاء حاكميته، وسيادة مرجعيته العليا. وهذا جوهر وأساس الاجتماع السياسي للأمة المسلمة، وأساس التمكين الحق.

(1) [جاءت في الأثر عن الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، ويُروى كحديث موقوف أو مرسل في خطب ومرويات الفتن]

وقد يخلط البعض ـ قبل أن تحين ساعة الأمم ـ بين "**التمكين الحق**" و"**التمتع الباطل**":

فالتمكين الحق هو: التمكين الذي فيه رضى الله: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾ [هود: 52] ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ٩٦﴾ [الأعراف: 96]

وأما التمتع الباطل فهو: الإملاء والإمهال لحين، والتمتع القليل؛ وهذا الذي يغتر به البعض، ويجعلوهم يقولون: لو أن الله ساخط علينا ما أعطنا كل هذه النعم؟! ﴿نُمَتِّعُهُمۡ قَلِيلٗا ثُمَّ نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٢٤﴾ [لقمان: 24] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [هود: 15-16]

فيجب ـ في كل الأحوال ـ أخذ الكتاب بقوة، وذكر ما فيه، وذكر نِعم الله بهذا الكتاب العظيم، والنور التام المبين، والتمكين الكريم، وشكر كل ذلك بعمل الصالحات، والاستقامة على هذا الكتاب، والتزام تقوى الله في كل حال.

***

5- انفصام العروة الوثقى.

قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ٢٥٧﴾ [البقرة: 256 - 257]

الطاغوت هو: كل قوى وسلطة "غير مؤمنة ومسلمة لله جل جلاله".. والعروة الوثقى هي: الكفر بهذه القوى الطاغية (الكفر بأفكارها وأيديولوجياتها، ورموزها، وقواها المادية والحضارية) والإيمان الخالص بالله القوي الكبير المتعال، صاحب العزة والجبروت والكبرياء، وهذا الإيمان هو "العروة الوثقى" في الاجتماع والسياسة الإسلامية. ويدب الوهن، وتدخل الأمة في الظلمات عندما تبدأ في الانبهار بقوى الكفر، وتروح تقلدها، وتتماهى وتطبع معها؛ فتنسلخ من دينها بقدر هذا التماهي؛ وتفقد ولاية الله؛ فتدخل في الظلمات التي لا مخرج منها إلا نور الله، ومن يدخل هذه الظلمات فهو في الآخرة من الأخسرين.

جاء في الحديث الشريف: "عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلّم ـ قَالَ: "**لَتُنْقَضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ، عُرْوَةً عُرْوَةً، فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ، تَشَبَّثَ النَّاسُ بِالَّتِي تَلِيهَا، وَأَوَّلُهُنَّ نَقْضًا الْحُكْمُ، وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ**"[1]

و"عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلّم ـ فَقَالَ: "أَيُّ عُرَى الْإِسْلَامِ أَوْثَق؟ " قَالُوا: الصَّلَاةُ. قَالَ: "حَسَنَةٌ، وَمَا هِيَ بِهَا ". قَالُوا: الزَّكَاةُ. قَالَ: "حَسَنَةٌ، وَمَا هِيَ بِهَا". قَالُوا: صِيَامُ رَمَضَانَ. قَالَ: "حَسَنٌ، وَمَا هُوَ بِهِ". قَالُوا: الْحَجُّ. قَالَ: "حَسَنٌ وَمَا هُوَ بِهِ". قَالُوا: الْجِهَادُ. قَالَ: "حَسَنٌ وَمَا هُوَ بِهِ". قَالَ: "**إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللَّهِ، وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ**"[2]

و" عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلّم ـ:" يَا ابْنَ مَسْعُودٍ "، قُلْتُ: لَبَّيْكَ ثَلاثًا، قَالَ: "هَلْ تَدْرُونَ أَيُّ عُرَى الإِيمَانِ أَوْثَقُ؟" قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "**الْوَلايَةُ فِي اللَّهِ، وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ**"[3]

فأوثق عرى الإسلام، وأقوى رابطة يقوم عليها الاجتماع السياسي، هي: **الحكم والنظام المبني على "الولاية في الله، والحب في الله، والبغض في الله"**، وعلى هذا الأساس المتين والبنيان القويم يقوم الحكم الإسلامي،

(1) [مسند الإمام أحمد/ 21655]
(2) [مسند الإمام أحمد/ 18053 ، مسند الروياني/ 399]
(3) [المعجم الكبير للطبراني/ 10357]

والأمة المسلمة، ودونه الفساد الكبير: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾ [الأنفال: 73]

ولا تقوم هذه الولاية إلا عند الكفر بالطاغوت، وبالقوى المادية الباطلة، وبالأفكار الجاهلية؛ ليخلص القلب للإيمان بالله، ويتطهر الحكم من الطغيان، ويتطهر الاجتماع الإسلامي من الجاهلية..

وعندما تُنقض عروة الحكم والنظام المبني على ولاية الله يدب الفساد والوهن في المجتمع الذي يكون له الطاغوت، والحكم العضوض فتنة وبلاء ووسيلة إضلال؛ وهذه أولى خطوات التحلل من التمكين..

ولكي يعود التمكين الحق من جديد لابد من جهاد الطاغوت، وإلى إعادة أوثق عرى الإيمان "الولاية في الله" إلى الحكم من جديد؛ ليتحقق التمكين الرباني الرشيد؛ ولتنقطع الفتنة والفساد في الأرض:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النساء: 76]

***

6- اتباع المتشابه وكثرة الجدال والاختلاف.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٩﴾ [آل عمران: 7-9]

توفر الراحة الفكرية، وأوقات الفراغ، والثرثرة الدائمة، وقلة العمل، والبطالة، والقعود عن الجهاد وحمل الرسالة.. مساحة معززة للجدال والاختلاف واتباع المتشابه، وابتغاء التفلسف والتنطع والتفيهق والتشدق بغير حق؛ مما يؤدي إلى: إثارة الفتن، وترك العمل بالمحكم إلى الجدال في المتشابه، وتعزيز الانقسام المذهبي والفكري، وشغل الناس بالأمور الجدلية وإيغال صدورها تجاه إخوانها! وتقسيمها على غير ما أنزل الله به سلطاناً، وتفتيت ولاءها وقوتها ووحدتها في أمور هامشية فرعية؛ تؤدي إلى الفشل والتنازع؛ فتُضيع ريحها وقوتها وطاقاتها![1]

وفي الحديث الشريف: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عليه وَسَلّم ـ: "**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَانْتَهُوا، وَمَا أَمَرْتُكُمْ، فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**"[2]

"وعَنْ جَابِرٍ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عليه وَسَلّم ـ قَالَ: "**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ**"، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: "**الْمُتَكَبِّرُونَ**"[3]

وقال تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١١٤﴾ [النساء: 114]

فإنما العلم للعمل، وإنما الفقه للحياة، وإنما الشريعة لإقامة النظام الرباني، وإنما الحياة للجهاد.. ففي حياة المسلم لا مجال للثرثرة الفارغة، ولا يرفع الإسلام شأناً لكل علم لا يترتب عليه عمل صالح أو تزكية نفس أو صلاح قلب.

---

(1) [انظر مقال: "القضايا الخمس المصيرية للأمة المسلمة"، ومقال: "أسئلة في العقيدة"]

(2) [مسند الإمام أحمد/ 7320]

(3) [جامع الترمذي/ 2018] "وَالثَّرْثَارُ هُوَ الْكَثِيرُ الْكَلَامِ، وَالْمُتَشَدِّقُ الَّذِي يَتَطَاوَلُ عَلَى النَّاسِ فِي الْكَلَامِ وَيَبْذُو عَلَيْهِمْ".

والصواب: في استمرارية طلب الهداية من الله، وعدم الشعور بالاستغناء عن الله وهدايته بعد التمكين، والتذكر الدائم الحاضر لليوم الآخر والعمل له، **واستمرارية الجهاد في سبيل الله، وحمل رسالته للعالمين:**

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [التوبة: 38-39]

***

7- إدمان الشهوات، والتنافس على الدنيا.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: 14-17]

الانهماك والإسراف في الشهوات حد الترف المدمن والاستغراق الكامل، والمحلل للنفس الإنسانية من العزيمة الراشدة، والجهاد الدائم هو مرض خطير يسحب الناس لتُقاد من خطام الشهوات، والشهوات وحسب! ويمركزها حول ذاتها، في حالة من الفردانية التامة! دون العمل الجاد، والإصلاح المستمر، وحمل الرسالة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل مجال ونشاط.

ولا يمنع الإسلام من التمتع الطيب بالطيبات، ولكنه يرفض أن تتحول إلى غاية الإنسان الكبرى في الحياة، أو تتمحور كل حياته حولها! جاء في الحديث الشريف: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلّم ـ : "**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ [جُمِعَتْ] لَهُ الدُّنْيَا**".[1]

وإن أهل الإيمان الحق أولئك الذين يطلبون مغفرة الله، ولديهم الشعور الدائم بيوم الحساب؛ ولذلك فهم أهل الصبر والصدق والقنوت والتصدق والعبادة المتصلة بالله رب العالمين، وهم كذلك أهل العزيمة والبأس والجهاد، لا يغرنهم متاع الحياة الدنيا، ولا يغرنهم بالله الغرور.

وفي التمكين: يحصل التنافس المحموم ليس على مغفرة الله والدار الآخرة، وإنما التنافس على الاستئثار بالسلطة، والاستجابة للإغواء، وجمع الأموال من أي طريق، والفرح المذموم بالزينة والمتاع الدنيوي المُنسي للدار الآخرة؛ والذي يُولد الطغيان والفساد..

ولقد كان ذلك من الأسباب الرئيسية في انهيار خلافة "الملك العضوض"؛ حيث الإكثار من الجواري والإماء التي اخترقت قصور الخلافة! وتقلدت بعض مقاليد الحكم من وراء ستار! وأشغلت الخلفاء عن سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى انحرفوا عن سنته في "سياسة الحكم والمال"، وتكالب الأعداء التاريخيين للأمة المسلمة في أشد لحظات ضعفها حتى انقضوا عليها وقسّموها وتغلبوا عليها، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

(1) [شعب الإيمان للبيقهي/ 10362، وجامع الترمذي]

وفي حالة الاستضعاف التي تمر بها الأمة الآن عليها أن تتعلم الدرس من نور كتاب الله، وتفهم بهذا النور أسباب السقوط، وعوامل النهوض، وشروط واستمرارية التمكين الرباني الحق.

والأمة الآن رغم هيمنة العدو التاريخي ـ من اليهود والصليبيين والمشركين ـ عليها، وإذلاله وقهره لها.. تملك من كل شيء، وأعطاها الله من كل شيء، **فهو ليس استضعافاً لنقص في الموارد والإمكانيات** والأنفس والثمرات والأموال.. بل هي في أغنى البقاع ولديها من الثروات من كل شكل ولون، وتتمتع بمكانة جغرافية فريدة، وتنعم بالقوى البشرية والشبابية الهائلة... إلخ، ويكفيها قبل كل ذلك كتاب الله الذي فيه كل قوة وسلطان.. ولكنها مُقسمة وحبيسة ويتسلّط عليها طغاة فجرة مجرمون يعاونهم قوى الشر العالمية؛ فيسرقون ثرواتها ويستعبدون رجالها ونساءها، ويذهبون بكل هذه القوى المتوفرة إلى لا شيء سوى التيه والعبث والفتن!

وعلى **المصلحين والدعاة والمفكرين** تحرير الأمة فكرياً من كل الأفكار الباطلة والموازين الجاهلية، وعلى **المجاهدين** كسر الطوق عنها، وتحطيم أسوار السجن الكبير؛ وتحرير الأمة لتسترد مكانتها العالمية "باسم الله، في سبيل الله"، وعلى **الأمة** أن تستجيب لدعاة الحق، وتكون لهم رداءً، وتُكرم الأيدي الممدودة لها بالحرية والكرامة والشريعة وحكم الكتاب، ولا يمكن أن يتم التحرير إلا بتضافر هذه الجهود معاً.. حتى تتم ـ بإذن الله ـ الانطلاقة الكبرى للأمة المسلمة، وتعود لها قوتها ووحدتها وعزتها وإيمانها وخيريتها ورشدها على منهاج النبوة.

***

8- التولي عن حكم الكتاب.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: 23-26]

تتحدث الآية الكريمة عن حال أهل الكتاب وهم يعرضون عن التحاكم إلى كتاب الله، وفي ذات الوقت تحذير للأمة المسلمة أن تسلك مسلكهم أو تتبع سننهم، كما جاء في الحديث الشريف: "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ - صَلى اللهُ عليه وسَلّم - قَالَ: **"لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، قَالَ: فَمَنْ**"[1]

فهذا الكتاب نزل بالحق والعدل الرباني **ليحكم بين الناس في كل شؤون حياتهم**، فإذا بهم يُعرضون عنه طمعاً في منصب أو جاه أو متاع، أو حسداً وبغياً وكرهاً.. أو يؤمنون بشعائره دون شرائعه، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض! وفي هذا الإعراض - الذي يقوض أساس الإيمان - يظنون أن الله سيعفو عنهم أو أنهم سيدخلون النار أياماً قليلة للتطهر من الذنوب! ثم من بعدها الرضوان! وهذا من الغرور والأماني الباطلة والافتراء الخبيث، فلكل نفس ما كسبت: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة: 85]

ومن يُعرض عن هذا الكتاب ظناً منه أن في هذا الإعراض الملك والعزة! فالملك كله لله والعزة كلها من الله.. فهو المدبر لكل صغيرة وكبيرة في هذا الكون، وحقيق بالإنسان اللجوء إليه - جل جلاله - والتمسك بطاعته، وبكتابه.. وإنْ بدا - ظاهرياً - أنَّ عرض الدنيا في الإعراض عن الكتاب؛ فذلك تزيين الشيطان.

وقديماً كان الإعراض عن الكتاب، والإيمان ببعضه والكفر بالبعض الآخر طمعاً في عرض زائل من الحياة الدنيا، والتسلط على الناس، وأكل أموالهم بينهم بالباطل، والتظالم فيما بينهم! ثم لما وقعت الثورات العَلمانية الإلحادية؛ نبذت الدين تماماً من حياتها، وجعلت فلسفة الحياة قائمة على: "الحياة الدنيا وزينتها" والمادية الإلحادية في التصورات والقيم وفي الثقافة والفكر وفي النظم والتشريعات وفي السياسة والاقتصاد![2]

---

(1) [صحيح البخاري/ 3456]

(2) [انظر مقال: "العلم والإلحاد"، و"السار الناعم"]

وانقسمت العَلمانية[1] إلى:

"**عَلمانية وحشية**" معادية لكل مظاهر الدين ـ وأقصد هنا "الإسلام" تحديداً ـ كما كان في "العَلمانية الأتاتوركية".[2]

و"**عَلمانية معتدلة**" تحترم شعائر الدين وترفض شرائعه، مثل الكثير من أنظمة الحكم في بلادنا، ثم تُجرد العَلمانية شعائر الدين من مقوماتها الأخلاقية والسلوكية وتجعلها مجرد احتفالات وطقوس ولعب ولهو! مع ضمانة تفسير الإسلام وعلمنته كما يشاؤون.. تفسير الإسلام على نحو الانسلاخ من الشريعة أو تفسيرات باطنية قديمة وحديثة أو تطبيعه مع كل فجور وفاحشة وباطل وظلم... إلخ من محاولات إماتة حقائق الإسلام وأركانه وشريعته! ومحاولة الطعن في مصادره والتشكيك فيها باسم "البحث العلمي، والتجديد والأعمال الأكاديمية البريئة"! حتى يخرج الإسلام بصورة مُرضية للعلمانية ومؤيداً وخادماً لها!!

وحسب الناس أنهم متدينون لأنهم يؤدون شعائر الدين فقط! واعتبروا أن أي حكم للدين في الشأن العام هو إقحام للدين في السياسة... إلخ من تخرصات وترهات العَلمانية! وصار هذا المنكر هو المعروف، والمعروف من سيادة الكتاب ومرجعيته العليا على الحاكم والمحكوم والأمة والنظام والدولة هو المنكر، والعياذ بالله![3]

ولا إيمان، ولا حياة، ولا وجود، ولا عزة، ولا نصرة، ولا ولاية إلهية لهذه الأمة إلا بأن تجتمع تحت راية الله، وتُحكّم كتابه، وتتبع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

***

(1) "العَلمانية" هي الترجمة العربية والاصطلاحية لكلمة "secularism / laicism"، مع ضبطها بفتح العين: **العَلْمانية**، لا بكسرها العِلمانية؛ لأنها ليست نسبةً إلى "العِلم/science". ويُترجم مجمع اللغة العربية بالقاهرة كلمة "Secular State" إلى "دولة علمانية"، ويعرّفها بأنها: "الدولة التي لا ينص دستورها على دين أو مذهب معين تتبعه حكومتها، ويتساوى مواطنوها في الحقوق على اختلاف عقائدهم".

وبحسب Britannica، تُعرّف بأنها: "رؤية للعالم أو مبدأ سياسي يفصل الدين عن مجالات الوجود الإنساني الأخرى؛ ورؤية فلسفية للعالم تُظهر عدم اكتراث بالدين أو ترفضه كأساس رئيسي للفهم والأخلاق، وهي تشمل الإلحاد ولكنها لا تُطابقه تمامًا. أما في السياقات السياسية، فتتخذ العلمانية أشكالًا عديدة، ولكنها تتألف بشكل عام من السياسات الرسمية للدولة القومية العلمانية الحديثة فيما يتعلق بعلاقتها بالدين وإشرافها عليه."

ويمكن تعريفها أيضاً بأنها "**الدهرية . الدنيوية**" استشهاداً بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤﴾ [الجاثية: 24]

(2) [انظر مقال: "أسلمة أتاتورك"]

(3) [انظر كتاب: "توحيد الربوبية.. ومفهوم الحاكمية"، ومقالات: "خطورة الفكر العلماني" و"المتدين العلماني" و"فتنة العلمانية"]

9- طاعة الكافرين، والتفرق.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ١٠٠ وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٥﴾ [آل عمران: 100 - 105]

في التمكين: يحاول الكافرون ـ خاصة أهل الكتاب ـ اختراق المجتمع ونظام الحكم من خلال التزلف وتقديم الخبرة والمشورة والنصح، وستر العداوة والبغضاء الكامنة فيهم! وإنَّ محاولة طاعتهم والاستجابة لهم قد يؤدي بالمؤمنين إلى الخروج من الإسلام! ومن ثم فالواجب الاعتصام بالله، والمضي على صراطه المستقيم، وعدم التفرق بسبب مكائدهم ومؤامراتهم وأرائهم، أو بسبب أطماع الدنيا، والامتناع من اتخاذهم بطانة، كما قال تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨﴾ [آل عمران: 118]

وقال سبحانه: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ[1] وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [التوبة: 16]

فما على الأمة في كل مراحل التمكين سوى التقوى والصبر والاستمساك بالكتاب، والاعتصام بحبل الله فلا تتفرق بغياً وعدواً، وولاية المؤمنين، والمضي على الصراط المستقيم، **والانشغال بالجهاد والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاستعلاء بهذا الدين.**

---

(1) "**الوليجة**" هي: " كل شخص أو جهة أو رابطة تُدخَل في باطن الأمر، وتُمنح خصوصية أو سراً أو تأثيراً أو ولاءً داخلياً، مع كونها ليست من موضع الولاء الصحيح أو الثقة الواجبة. فتؤدي إلى (إفشاء الأسرار، وخيانة الأمة). والمقصد من الآية: أي لم يتخذوا بطانة خفية، ولا دخيلة سرّية، ولا جهة ولاء باطن، ولا خاصّة يطلعونها على أسرار الصف المؤمن من دون الله ورسوله والمؤمنين. فالآية تتكلم عن **نقاء الولاء**، لا عن مجرد العلاقات الاجتماعية."

ويتأكد هذا المعنى في مناسبات كثيرة، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [آل عمران: 149-151]

ولقد كان في طاعة الكافرين من أهل الكتاب، واتخاذهم بطانة، وموالاتهم من أهم أسباب سقوط "الدول الإسلامية" عبر مراحل تاريخ هذه الأمة؛ حيث يؤدي تفرق الأمة، وتفكك وحدتها الروحية والفكرية والإيمانية والتشريعية وترك الجهاد، والانشغال بأطماع السلطة والحكم إلى الاستنصار بأهل الكتاب وموالاتهم على فريق آخر من الأمة! طمعاً في الحكم والجاه والسلطان، كما حصل في الأندلس، وفي الدولة الأيوبية، والدولة العثمانية... إلخ، وكانت النتيجة هزيمة الأمة كلها، وتسلط العدو عليها!

هذا من جانب، والجانب الآخر: أن هذا الفعل هو "الكفر البواح"[1]، فهو خسارة الدين والدنيا، فلا مولى لهذه الأمة سوى الله ـ جل جلاله ـ الذي هو خير الناصرين.

وحتى تتجنب الأمة ومؤسسات الحكم فيها تكرار هذه المأساة التي تُضَيّع الدين والدنيا.. عليها الاعتصام بالله، وتقواه، وعدم التفرق في الدين بغياً وعدوا، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصة في الشأن **الاجتماعي السياسي**؛ ولا تسمح لأحد كائناً من كان أن يتسلط عليها بالجبروت ويُظاهر عليها عدوها من أهل الكتاب والمشركين، فلا تمضي على سنن أهل الكتاب الذين تفرقوا واختلفوا، وإن هي فعلت ذلك ـ والعياذ بالله ـ فليس لها كرامة عند الله، ولها عذاب عظيم في الدنيا والآخرة:

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾ [النساء: 123]

***

(1) [انظر: درس "الكفر البواح" في كتاب: "العقيدة السياسية في التصور الإسلامي"]

10- أكل الربا.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٣٢﴾ [آل عمران: 130-132]

حذر الله تعالى الأمة المسلمة من أن يقوم نظامها الاقتصادي الاجتماعي (أو المعاملات الفردية) على أساس الربا، فذلك مما يُفسد ويدمر المجتمع، ويخلق الفوارق المُصدّعة للمجتمع، ويجعل فئة قليلة تغرق في الترف، وفئة كثيرة تغرق في الفقر والبطالة.. ويؤدي التحلل من تقوى الله إلى عدم المبالاة بالحرام والحلال، وتحاول البطانة المنتفعة الطفيلية أن توسع نفوذها المالي والسياسي من خلال الممارسات المحرمة. وفي الحديث الشريف: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ - صَلى اللهُ عَليه وَسَلّم - قَالَ: "**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُبَالِي الْمَرْءُ بِمَا أَخَذَ الْمَالَ، أَمِنْ حَلَالٍ أَمْ مِنْ حَرَامٍ**"[1]

وجاء في الأثر: "**لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لا يَبْقَى فِيهِ أَحَدٌ إِلا أَكَلَ الرِّبَا، فَإِنْ لَمْ يَأْكُلْهُ أَصَابَهُ مِنْ غُبَارِهِ**"[2]

وفي التمكين: وعندما ينشغل الناس بالترف والمتاع والكنز، ويركنون إلى الحياة الدنيا، ويبتعدون عن ظل الشريعة، ويتأثرون ويتبعون سنن أهل الكتاب.. فإنهم يتعاطون بالربا، ولا يبالون بالحلال والحرام! وقد كان سوء إدارة المال، ونبذ الشريعة فيه مما يفسد المجتمعات والأنظمة عبر التاريخ الإسلامي..

ثم لما حصلت الهجمة الصليبية العَلمانية على العالم الإسلامي، وتقسيمه وتفتيته وتدمير الوحدة والدولة الإسلامية.. تم استيراد نظام اقتصادي كامل يقوم على **الربا والفوائد والاقتراض والتبعية**، وتم استلاب القرار السياسي والاقتصادي من البلدان الإسلامية.. وصارت العَلمانية لها المرجعية والحاكمية العليا!

ولم يعد هناك النظام الإسلامي والدولة التي تمثله ابتداء لنخاطبها بخطاب الشريعة الغراء! فالدول التي خرجت من عملية التقسيم كانت رهينة للعدو، الذي سرق ثرواتها، واسترق شعوبها، وحدد لهم نظام الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية والفكرية التي تنظم حياتهم، ونصّب العدو عملائه ليسجنوا شعوبها المسلمة!

فكانت منظومة الربا في صورة "الفوائد"، وكانت البنوك التي تقوم **بتسليع** "المال" وإقراضه بالربا، واختراع منتجات مالية لا حصر لها لهذا الربا، وبعضها يضعون عليه يافطة "إسلامية" لخداع البسطاء والمتدينين! وكانت الحكومات الفاسدة التي تسرق المال العام، وتغرق في دوامة الديون المحلية والدولية، وترهن مستقبل شعوبها لبضع أفراد ومؤسسات!! وقام يهود وأعوانهم بإغراق العالم في دورة الربا العالمية! وما يتبع ذلك من استعباد

(1) [صحيح البخاري/ 2083]

(2) [المستدرك على الصحيحين/ (2: 11)، ونقول: "جاء في الأثر" عند انقطاع سند الحديث أو كونه موقوفاً، ونُورده للاستئناس]

الناس بالقروض، وتكبيلهم بالديون، وإفقارهم بالاستهلاك المفرط والتفاخري والاستعراضي، وتشكيل نمط حياتهم وسلوكهم وفكرهم، وغرق المجتمعات في الفواحش والموبقات، وتركيع الدول بالقروض السيادية! وتدويل القروض بين الدول الكبرى والمؤسسات الخاصة؛ ولذلك أذن الله بحرب من الله ورسوله للقضاء على هذا الربا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة: 278-279]

والتمكين الرباني الحق هو: الذي يمنع الربا، ويمنع الوسائل المؤدية للربا، ويمنع تحليل الربا وخداع الناس بالفتاوى المضللة والحلول الترقيعية الشكلية المزيفة، ويحارب الظلم والفساد والغرر، والمضاربات الفاسدة الوهمية المزيفة التي هي عين القمار، وأكل أموال الناس بالباطل، ويحفظ قيمة العُملة ويحميها من الانهيار، ويقيم ركائز الاقتصاد الإسلامي ـ بعد قيام الدولة المسلمة لله ولشريعته ـ على الأسس والمقومات التي ذكرها الله في كتابه، وجاءت به سنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويحارب توحش يهود ومؤسساتهم على البشرية جمعاء، ويمنع أكلهم السحت، ويبني الاقتصاد النافع الرحيم الذي يقوم على: الرحمة والعدل والإنتاج النافع، والمشاركة الحقيقية، والتعاون الطيب المثمر الذي فيه نفع الناس أجمعين، ويحفظ كرامتهم، ويحميهم من الفقر والعوز، ومن النهم والاستهلاك المفرط، ويقوم على السماحة واليسر، والخير والإحسان.[1]

***

(1) [للمزيد، انظر: درس "النظرية الاقتصادية" في كتاب: "العقيدة السياسية في التصور الإسلامي"، ومقال: "العُملة الشرعية والربا"]

11- حب الدنيا وكراهية الموت.

قال تعالى: ﴿... يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ [آل عمران: 154-156]

يؤدي الغرور بزينة الحياة الدنيا وترفها إلى كراهية الموت، وكراهية الجهاد.. والظن بأن الجهاد سيؤدي إلى الهلاك والموت، وإن القعود فيه مظنة النجاة والحياة! بينما تحسم هذه الآيات الكريمات الموقف من وجهتين:

الأولى: إنَّ قدر الله نافذ، وإن ساعة الموت لن يمنعها القعود والهروب، ولن يُقربها الجهاد والقتال.

والثانية: **إنَّ الجهاد حياة للأمة، وطريق لدوام التمكين، وإن الموت في سبيل الله هو أعظم الفوز، وأوسع الرحمة.**

وإنَّ القعود عنه يحول الأمة إلى الحالة الغثائية كما جاء في الحديث الشريف: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عليه وسَلّم ـ: **"يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ"**[1]

وعنه عليه الصلاة والسلام: **"إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ."**[2]

وإنَّ الخوف الهستيري المرَضِي من مقارعة الباطل إنما هي محاولة الشيطان لثني المسلمين عن الجهاد، والاستسلام للوهن والضعف، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: 175]

---

(1) [سنن أبي داود/ 4297]، انظر مقال: "غثاء السيل".

(2) [سنن أبي داود/ 3462]

فللخروج من الاستضعاف لا بد من الجهاد، ولاستمرار التمكين لا بد من الجهاد.. ولا بد للجهاد من "أمة حية فاعلة موحدة" لا أمة غثائية ترضى بالوهن، والضعف والاستكانة، أو ترضى بمتاع الدنيا الزائل وتراه كل شيء، وتركن إلى الدنيا وزينتها، وإلى الانهزامية واللافعالية، ثم تحاول أن تشرعن ضعفها بأن الوهن حكمة، وأن الركون إلى الدنيا طيب مباح! بينما ترى عدوها وهو يسابق الزمن لتحصيل كل قوى، وهو يتكالب عليها فلا تحرك ساكناً، وكأنها تنتظر دورها في الذبح!

فالباطل "يقاتل" ويتألم، ويكابد، ويصبر، ويحاول.. ولكن كل ذلك في "سبيل الطاغوت"، فأولى بأهل الحق أن "يقاتلوا" ويصبروا، ويحتسبوا، وأن يكون قتالهم في "سبيل الله":

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: 76]

فأخطر ما يواجه الجهاد هو: **"الوهن، وأفكاره الباطلة"** و**"الترف، والغرور"..** والأمة التي تريد الحياة الدنيا والآخرة عليها أن تحذر الوهن والترف، وتقاتل في سبيل الله:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: 111]

***

12- الرياء والسمعة والتخلف عن الكفاح.

قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾ [آل عمران: 188-189]

هؤلاء صنف من الناس يُجيد التلاعب والقول الحسن الحصيف، يفرحون بما أتوا من حلاوة اللسان، وجزالة القول، ويستعلون بذواتهم (لا بالحق ولا بالشهادة لله)، ويحبون أن يُحمدوا ويُجلوا وأن ينظر الناس إليهم نظرة تقدير وثناء وإعلاء وهيبة، بينما هم لم يفعلوا للحق شيئاً، ويهربون من تكاليف الكفاح! فإذا انتصر المؤمنون قالوا: إنا معكم! وإن انهزموا قالوا عنهم: يا لهم من سفهاء! لم يستمعوا لحكمتنا ورأينا، وشمخوا ونسبوا لأنفسهم التعقل والحصافة والحلم والأناة. إنهم جبناء مغرورون يأثرون الهرب لأنفسهم عند الخطر والتكاليف، وفي ذات الوقت يطلبون الثناء عليها! وهؤلاء يتوعدهم الملك ـ جل جلاله ـ بالعذاب الذي لا مهرب منه ولا نجاة.

وهذا من علامات النفاق: ﴿... وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْۖ ﴿٤﴾﴾ [المنافقون:4]

وفي التمكين: يكثر هذا الصنف من الناس، ويجب الحذر منهم، ومن توجهاتهم، وعدم السماح لهم بالاستطالة على الناس أو توجيههم فكرياً وتربوياً.

فالعمل للإسلام والكفاح والجهاد والعمل من أجل تمكينه ليس فيه رؤية النفس، ولا تلبية لأطماعها وتطلعاتها، ليس فيه رياء ولا سمعة ولا بطر.. فلا قيمة للعمل للإسلام ما لم يكن "ابتغاء مرضاة الله"، و"خالصاً في سبيل الله".

ولذا لم يولِ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من رأى فيه تشوف ورغبة وتطلع لأن يتخذ من المنصب وسيلة للاستعلاء والتكبر أو المصلحة الذاتية، فعَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: "دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَمِّي، فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِّرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلَّاكَ اللَّهُ ـ جَل جَلاله ـ وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ: فَقَالَ: **إِنَّا وَاللَّهِ لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ**"[1]

ومن وصية أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ لخالد بن الوليد: "أَتْمِمْ يُتْمِمِ اللَّهُ لَكَ، وَلا يَدْخُلَنَّكَ عُجْبٌ فَتَحْسَرَ وَتُخْذَلَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَدُلَّ بِعَمَلٍ، فَإِنَّ اللَّهَ ـ جَل جَلاله ـ لَهُ الْمَنُّ، وَهُوَ وَلِيُّ الْجَزَاءِ."[2]

(1) [صحيح مسلم/ 1826]

(2) [تاريخ الطبري (3: 203)]

وقَالَ النَّبِيُّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ: "يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، **لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا...**"[1]

وقال تعالى محذراً المجاهدين في سبيله: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٧﴾ [الأنفال: 47]

وجاء في الحديث الشريف: «عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ **لِلْمَغْنَمِ**، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ **لِلذِّكْرِ**، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ **لِيُرَى مَكَانُهُ**، فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: (**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**).»[2]

فأهم ما يجب أن ينشغل به "العبد المسلم" أن يُخلص نيته وعمله لله ـ وحده لا شريك له ـ ولا يدع في نفسه عند العمل لله حظاً من الجزاء المعنوي أو المادي يسأله الناس، ولا يشرك مع الله شيئاً في عمله..

وأهم ما يجب على "الأمة المسلمة" أن تبدأ به كل عمل، وكل كفاح، وكل جهاد، أن **تقوم لله وحده لا شريك له.**

***

(1) [صحيح البخاري/ 6622]

(2) [صحيح البخاري/ 2655]

13- التهاون في الوقوع في الكبائر.

قال تعالى بعد أحكام وفرائض المواريث: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء: 13-14]

وقال ـ جل جلاله ـ بعد بعض أحكام الأسرة: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: 26-28]

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء: 29-31]

النفس الإنسانية في حالة التمكن والقوة تشعر بالاستغناء، وتَستسهل الطغيان، ويغرها المتاع! ويتملّكها الإحساس بدوام القوة؛ فتتهاون في الوقوع في الكبائر، وتتحلل شيئاً فشيء من أحكام الشريعة؛ لذا جاء بعد أحكام المواريث التوجيه القاطع بالتمسك بحدود الله، وطاعة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجاء الوعيد المباشر بالخلود في النار، والعذاب المهين لمن ينتهك الحدود ويلج في المعصية! رغم أن الذي عليه "أهل السنة" أن مرتكب الكبيرة لا يُخلد في النار، ولكن الأمر هنا ليس له علاقة بالحكم العام على مرتكب كبيرة[1]، إنما على **المآل الذي سيؤدي إلى التهاون في الوقوع في الكبائر**، وهو حتماً سيؤدي ـ إذ لم يُتدارك بالتوبة ـ إلى الخلود في النار والعذاب المهين.

والتهاون في الكبائر لا بد أن يسوق الإنسان إلى الشهوات الجنسية المنحرفة.. فالأحكام المالية والأسرية إنما هي لحفظ الإنسان وحفظ الأسرة والمجتمع، وعندما تُنتهك حدود الله في المال، وحدوده في العلاقة بين الجنسين.. يتفسخ المجتمع، ويتنافس على هذا المتاع الزائل، فيأكل بعضهم مال بعض؛ فتنفصم "العروة الوثقى" ويتكالب الأعداء على الأمة؛ لينحرفوا بها عن الصراط المستقيم، والمنهج القويم؛ وليصبغوها بغير "صبغة الله" **يصبغونها بصبغة جاهلية علمانية فاسدة**؛ تُضيّع عليهم الدين والدنيا، كما نرى اليوم العبث بأحكام الأسرة ـ وغيرها ـ تلبية لأوامر الغرب الذي يريد للأمة أن تميل ميلاً عظيماً عن الحق والدين والشريعة،

(1) [انظر: بحث "حكم مرتكب الكبيرة"]

ويتركها غثاء فاسداً لا قيمة له، ولا أثر، ولا وجود.

ولدوام التمكين، ولصلاح المجتمع.. يجب على الأمة (أفراداً ومجتمعات) حفظ حدود الله، وإقامة شريعته وإتمام مقاصدها، ومحاربة الكبائر، ومنع شيوع الفواحش، والأخذ على يد الظالمين والفساق والمجرمين والخونة..

جاء في الحديث الشريف: "عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ قَالَ: **"مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا"**[1]

***

(1) [صحيح البخاري/ 2493]

14- البخل والتكبر والرياء.

قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ٣٨ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ٣٩﴾ [النساء: 36-39]

يُربي القرآن الكريم النفس الإنسانية ـ في كل أحوالها ـ على العبودية الخالصة لله وعلى تقواه التي هي ضمان صحة هذه العبودية، وعلى السلوك الكريم المتواضع والوفاء الحسن للأقربين والأبعدين.. هذا التواضع الذي يحمي النفس من الزهو والعُجب والتكبر (بالمال أو النسب أو الجاه أو السلطان أو العرق... إلخ) فلا استعلاء إلا بما أنعم الله به على العبد من إيمان وتقوى ـ وهو استعلاء على الكفر والكافرين ـ ودون ذلك هو التواضع الكريم الذي يحمي النفس من ازدراء الحق أو ازدراء الناس واحتقارهم لأنهم أدنى منزلة؛ ولذا جاء في الآية التالية التحذير من البخل، وليس هو البخل فحسب.. بل إن هؤلاء المختالين المتفاخرين يريدون أن يُنشئوا لأنفسهم "طبقة خاصة" دون الناس؛ فيتآمرون ويخططون فيما بينهم ويشجعون طبقتهم على البخل! والله جعلهم بهذا الفعل من الكافرين، وكيف لا؟ وقد كفروا نعمة الله عليهم بعدما آتاهم ـ سبحانه ـ من فضله!

ثم إذا هم أنفقوا تحت الضغط أو الحرج إنما هم ينفقون رئاء الناس وطلباً للسمعة وعلو الذكر، وأمثال هؤلاء لا يؤمنون حقاً بالله واليوم الآخر، فمن يؤمن بحق إنما ينتظر العوض والجزاء عند الله في "اليوم الآخر" فالمعنى هنا: الإيمان العملي الحق باليوم الآخر. إن هؤلاء الكافرين نعمة الله قد أصبحوا قرناء للشيطان بما قدمت أيديهم، وإنَّ باب الإيمان الحق بالله وباليوم الآخر مفتوحاً لهم، ومن علامته: الإنفاق في سبيل الله.

وهذا النوع من البخل من علامات النفاق، والاستكبار: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٥٤﴾ [التوبة: 54]

وفي التمكين: يكثر التباهي والتفاخر، وهو من جانب آخر يولد الشح والبخل؛ لأن التباهي والتفاخر والخيلاء هو علامة الافتقار، والوحشة، والفراغ، والضنك، والكبر! قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ١٢٦ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ١٢٧﴾ [طه: 124-127]

وجاء في الحديث الشريف: "**إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى الْقَلْبِ، وَالْفَقْرُ فَقْرُ الْقَلْبِ**"[1]، وفي رواية: "**مَنْ كَانَ الْغِنَى فِي قَلْبِهِ لا يَضُرُّهُ، مَا لَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَنْ كَانَ الْفَقْرُ فِي قَلْبِهِ، فَلا يُغْنِيهِ مَا أَكْثَرَ لَهُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا يَضُرُّ نَفْسَهُ شُحُّهَا**"[2]

وإنما الامتلاء والشبع والتواضع الكريم يأتي من حب الله ـ جل جلاله ـ ويأتي من الاهتمام بالقضايا الكبرى المصيرية، ويأتي من الحرص على نشر التقوى والخير والمعروف، وصلاح النفس، والحياة، والإنسانية جمعاء، وهو شعور وسلوك لا يمكن أن يتأتى لمن يبتغي التكبر والتفاخر والعُجب والزهو والبخل ومُرَاءَاة الناس؛ فهذا شعور الفقراء السفهاء.

***

(1) [السنن الكبرى للنسائي / 11785]

(2) [المعجم الكبير للطبراني/ 1643]

15- التحاكم إلى الطاغوت.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ٥٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١ فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ٦٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ٦٣ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ٦٤ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا٦٥﴾ [النساء: 58-65]

يَصل الحال النفسي والاجتماعي والسياسي إلى التحاكم إلى الطاغوت عندما لا تُؤدى الأمانات إلى أهلها، وعندما يكون الحكم بين الناس بالظلم لا بالعدل، وبالباطل لا بالشريعة، وبالمحاباة لا بالكفاءة، جاء في الحديث الشريف، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ**"[1] فيُوسد الأمر إلى غير أهله ممن يفقدون التقوى، والإيمان، والأمانة، والعلم، والقوة، ويحل محلهم المنافقون والأفاكون والفاسدون.. مما لا يطيعون الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يترضون حكم الله ورسوله ـ حيث العدل المطلق والحق المطلق ـ إنهم يريدون التحاكم إلى الأهواء والمصالح الذاتية، يريدون التحاكم إلى الطاغوت، إلى قوة الباطل، وأحوال الباطل، وإلى معايير شيطانية لا ربانية، ويصدون عن كل عدل، وكل شرع! وأمثال هؤلاء لا نصيب لهم من الإيمان الحق، **فما الإيمان إلا طاعة الله ورسوله، والتحاكم إلى كتابه ـ الذي أنزله ليقيم الحق والعدل بين الناس ـ في كل مجالات الحياة الروحية والمادية.. الشعائرية والتشريعية.** ولا إيمان للمسلم والأمة المسلمة دون هذا الاستسلام لله وكتابه وشريعته.

والطاغوت هو: **كل قوة وسلطة ومرجعية وسلطان ونظام وميزان وحكم لا يستمد سلطانه من الله، ولا يرجع إلى الله، ولا يتحاكم إلى شريعة الله، ولا يكون في سبيل الله،** قال تعالى:

(1) [صحيح البخاري/ 59]

﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ [النحل: 36]

ولقد كان المنافقون يحاولون هذه المحاولة على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم قلة حقيرة تتحين الفرصة تلو الفرصة لإفساد المجتمع المسلم ومرجعيته ومقومات وجوده! يحاولون ذلك وقد أمر الله ـ جل جلاله ـ رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالغلظة عليهم وبجهادهم جهاداً كبيراً، وقد نجت الأمة المسلمة من محاولاتهم الطاغوتية عبر التاريخ، وقد نجحوا أيضاً في خلخلة الصف المسلم في كثير من الأحيان، وقد حاولوا إفساد بعض معالم الفكر السياسي الإسلامي، ونشروا بعض الأفكار الهدامة! لكن الله حافظ كتابه، وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مجموعها وأصولها..

أما في هذا القرن الأخير فقد نجح المنافقون بمعاونة الذين كفروا من أهل الكتاب في التسلط على حكم الأمة المسلمة، وجعلوها ـ رغماً عنها، وقهراً لها ـ تتحاكم إلى الطاغوت من الأهواء والقوانين الوضعية والموازين العَلمانية الغربية! وصارت أي محاولة لإعادة الشريعة إلى الحاكمية العليا والمرجعية الشاملة هو "إرهاب" وتدخل ـ مرفوض ومحارب ـ للدين في السياسة! وكثير من الناس في جهالة عن أثر ذلك في إيمان المسلم! بل صار بعض المتدينين ينافح عن "العَلمانية المعتدلة" ويرى لا بأس بها! وتُدرس هذه النظريات في المدارس والجامعات، ويقوم عليها النظام السياسي والاقتصادي إن كان ثمة نظام؛ حيث في أحيان كثيرة تكون "عصابات مافيا" تتسلط على الأمة بالقهر والكبر والجبروت، وتُسلّمها لأعدى أعدائها في مقابل البقاء في السلطة..

وعندما يحصل ذلك تفقد الأمة "التمكين الرباني" وتُستضعف من كل طريق، ولا خروج من الاستضعاف إلا بتصحيح المفاهيم الإيمانية وإعلاء حكم الشريعة؛ **فلا يتم التمكين إلا بإعلاء حاكمية ومرجعية الشريعة، واقتلاع كل طاغوت من حياة المسلمين، ونظام حكمهم واجتماعهم.**[1]

***

(1) [للمزيد، انظر كتاب: "توحيد الربوبية، ومفهوم الحاكمية"]

16- التولي عن نُصرة المستضعفين.

قال تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: 74- 76]

نِعم التمكين من الأمن والأموال والثروات والأنفس ليست مجرد جائزة على "رحلة الاستضعاف" إنما الجزاء في الآخرة، وأما هذه النعم إنما هي **لاستكمال الرحلة، وللابتلاء، ولاستمرارية الجهاد في سبيل الله، وإنقاذ المستضعفين حيث كانوا، ورفع الظلم عنهم، وتبليغ كلمة الله للناس أجمعين، ومحاربة الطاغوت الذي يَحول بين الناس وكلمة الحق، وتحرير الناس من الاستعباد للطغاة..**

إنها خلافة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي عاش حياة التمكين في المدينة فكانت كلها جهاد في سبيل الله؛ ففي حوالي عشر سنوات ـ مدة حياته الكريمة في المدينة ـ كان فيها نحو سبعٍ وعشرين غزوة ـ لم يفتر لحظة فيها عن الجهاد في سبيل الله، ونصرة دينه، وتحرير المستضعفين في الأرض باسم الله، تحت راية الله.

والتمكين الذي يظن أن الأمن والأنفس والأموال والثروات هي مكافأة إنما يضرب على نفسه الذلة، ويضرب أول مسمار في نعش هذا التمكين، فلا استمرارية للتمكين الرباني إلا بالجهاد الدائم في سبيل الله، جاء في الحديث الشريف:

"عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلّم ـ يَقُولُ: **"إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ"**[1] جعل الجهاد مرادفاً للدين.

و"عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلّم ـ قَالَ: **"وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَدِدْتُ أَنِّي أُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَأُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ"**[2]

(1) [مسند أبي داود/ 3462]

(2) [صحيح البخاري/ 7227]

إنَّ الأمة المسلمة ليست مجرد جماعة دينية منغلقة على نفسها؛ تؤدي شعائرها في سلام وسكينة داخل جدران المسجد، دون أن يكون لها علاقة بهذا العالم!

فهذا الدين موضوعه "الإنسان".. كل الإنسان، في "الأرض".. كل الأرض! وهدفه "تحرير الإنسان" من عبودية البشر والأهواء والجاهلية وشياطين الإنس والجن والطواغيت، وحمل رسالة الله له، وتحطيم كل القوى التي تقف أو تمنع أو تحارب هذه الدعوة، وبعدها: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة: 256]

فبعد البلاغ يضمن الإسلام الحرية لكل إنسان؛ ولا يُكره أحداً على الدخول فيه، ولكن على رأس هذه الحريات "**بلاغ رسالة الله إلى العالمين**" ـ فهي رسالة أثقل من ملء الأرض ذهباً، وهي طريق الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة ـ **وإقامة الواقع والنظام الذي يعيش فيه الإسلام عزيزاً، والشريعة حاكمة**، وينطلق يحرر المستضعفين في كل مكان، ويتبنى مظلمة كل مظلوم، ويجلب السلام العالمي للناس أجمعين:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١﴾ [الحج: 39-41]

***

17- ولاية الكافرين.

قال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: 138-139]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء: 144-146]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: 51-52]

في حالة التمكين والقوة والمنعة ـ الخارجة عن الربانية ـ تتحول "القوة المادية" و"المصالح الذاتية الدنيوية" إلى المعيار الأوحد، والميزان المعتمد، ويصبح إزدراء المؤمنين الضعفاء حتمية أمام هذه الحالة من الطغيان. فيبحث المنافقون عن هذه القوة والمنعة، ولو كانت عند الكافرين! يريدون بذلك العزة والسيادة، ويرون بينهم وبين الكافرين الأقوياء ألفة ومحبة ومودة، وبين المؤمنين نفرة وإزدراء واحتقار.. وهم بهذه الولاية للكافرين المحاربين في الدرك الأسفل من النار، **فولاية الكافرين هدم لأصل من أصول الإيمان، وخيانة عظمى لله ورسوله وللأمة المسلمة،** ولن ينال المنافقون هذه العزة، فمن يُرد العزة فالعزة لله جميعاً. إنهم على مرّ التاريخ، وفي كل مرة يحاولون فيها هذه المحاولة فإنهم لا يصيبهم إلا الذلة والاستحقار والمهانة من الكافرين. فمن ذا الذي يحترم الخائنين؟!

أو إنهم يتقون بولايتهم مصائب قد تحل عليهم، فيطلبون منهم المنعة والنصرة! وليس أعظم مصيبة من مصيبة الدين ـ فهي خسارة الدنيا والآخرة ـ إنهم قد يبحثون عن مثل هذه الولاية لمحاربة غيرهم من الأمة المسلمة طمعاً في جاه أو سلطة أو ثروة أو أمنٍ أو حقد أو حسد أو بغي وعدوان؛ وهذه خيانة لله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والأمة المسلمة التي قال عنها رسول الله: "**يَدُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، وَيُجِيرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَدْنَاهُمْ، وَيَرُدُّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَقْصَاهُمْ**"[1]

(1) [سنن ابن ماجه/ 2685]

ولذا يتكرر هذا التحذير دوماً في القرآن الكريم، وينادي الله على عباده المؤمنين (قيادة ومجتمعاً) ألا يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة: 16]

فجعل ـ سبحانه وتعالى ـ من مجالات "الابتلاء والتمحيص": "الجهاد في سبيل الله" و"الامتناع من اتخاذ بطانة من المنافقين والكافرين"؛ مما يقتضي لزوم ولاية المؤمنين بعضهم بعضاً..

فالولاء والنصرة والقوة والاتحاد والتحالف لا يمكن إلا أن يكون بين المؤمنين بعضهم بعضاً، ولا ولاء ولا نصرة ولا خير يُرتجى من الكافرين وولايتهم؛ فطريق المؤمنين غير طريق الكافرين، ولا يلتقون في فكر، ولا نية، ولا شعور، ولا اعتقاد، ولا عمل.. وهؤلاء الكافرين ـ مهما ادعوا مصلحة المسلمين ـ لا يُنتظر منهم نصرة، فمن يكفر بالله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويُبغض هذا الدين! لا يُرْجَى منهم خير، وسيخونون المؤمنين في اللحظة الحاسمة، وسينقضون العهود عندما تتعارض مع مصالحهم، وسيُسلّمونهم لأعدى أعدائهم عندما تحين الفرصة، فكيف تكون هناك ولاية وتناصر وتحالف مع هؤلاء إلا أن يكون المؤمنون قد انسلخوا من إيمانهم!

ولا حل ولا علاج من هذا النفاق ومن ولاية الكافرين إلا **بإخلاص الدين كله لله، والاعتصام بالله وحده لا شريك له، وبولاية المؤمنين بعضهم بعضاً.**

***

18- ابتغاء الجاهلية.

قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ [المائدة: 49-50]

أمر الله ـ جل جلاله ـ الأمة المسلمة أن تستقيم على صراط الله المستقيم، لا تحيد عنه طرفة عين.. فكل انحراف عنه، وركون إلى الظالمين يؤدي في نهاية الطريق إلى النار ـ والعياذ بالله ـ **والاستقامة تبدأ بالإيمان الصادق والإخلاص التام، والتجرد الكلي، والمضي على شريعة رب العالمين..**

فإن وقع الانحراف أو الهوى أو طلب المتاع القريب ـ من أي طريق لا يبالي بحلال ولا حرام ولا حق ولا باطل ـ يبدأ التفلّت من حكم الله وما أنزله؛ ليحل محله اتباع الأهواء. ولا يقع الأمر جملة واحدة صريحة بالخروج من حكم الله؛ إنما التفلّت التدريجي، والتأويل المحرّف، وتحريف الكلم، وخداع الناس، والإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض، واتباع أهواء الحكام والأمراء الفاسدين، وذوي الجاه والثروة والسلطان، وأهواء الجماهير؛ حتى يعود الناس لجاهلية كالجاهلية الأولى وأشد! وهي جاهلية مهما حاول الناس تجميلها باسم العلم والتقدم والمدنية والحضارة! فكل خروج عن حكم الله وأمر الله وكتاب الله هو "جاهلية".

وإنَّ حقيقة البشرية أن أكثرها يَفسق وينحرف عن أمر الله، **ولا بد من سلطة لتُقر حكم الله؛ ولترد الناس إلى صراط الله المستقيم؛ ولتأمر بالمعروف ولتنه عن المنكر؛ وتمنع الناس أن تمضي وراء الأهواء الباطلة،** والرغبات الجاهلية، التي تُفسد الحكم، وتُفسد المجتمع، وتُفسد النفس الإنسانية.. فتتحول الأمة للحالة الغثائية؛ التي تُوقعها في ولاية الكافرين، وفي التحاكم إلى الطاغوت، وفي الذلة والتبعية لعدوها.

ويجب الانتباه إلى أن بيان منزلة الشريعة ـ والجهاد في سبيل الله من أجل إقامتها، وإتمام حاكميتها وعلوها ومرجعيتها ـ لا يعني الغلو في التكفير؛ فهناك جماعة من الناس تتبنى "خطاب الشريعة"؛ وتُكفر الحُكام، ومن يصوتون في الانتخابات... إلخ، ثم تنقل معركتها مع الذين يرفضون الغلو في التكفير! فتُكفرهم، وتُحاربهم (لأنهم لم يُكفروا المشركين بزعمهم!).. ومثل هذه الجماعة تُربك المشهد، وتُفسد الجهاد، وتصد عن سبيل الله؛ ويستغلها الأعداء لتشويه صورة الشريعة، وإفساد كل حراك راشد.[1]

***

(1) [انظر: بحث: "الغلو في التكفير"، ودرس الكفر البواح في كتاب: "العقيدة السياسية في التصور الإسلامي"، وبحث: "الفئة الباغية"، ومقال: "تكفير المتوقف في التكفير"]

19- التكالب على مغانم التمكين.

قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال: 1-4]

نزلت سورة الأنفال ـ والتي تعني الغنائم ـ في مناسبة غزوة بدر الكبرى، لتفتتح السورة الكريمة بأن هذه الغنائم لله والرسول.. حكمها إلى الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما على المؤمنين إلا تقوى الله، وصلاح ذات بينهم، فهذه علامة الإيمان، ومن علامته الوجل إذا ذُكر الله الذي إياه يعبدون وباسمه يجاهدون.. ومن علامته إقامة الصلاة التي تحقق التقوى في القلوب؛ وتنهى عن الفحشاء والمنكر، وتجعلهم ينفقون مما رزقهم الله، فهؤلاء هم المؤمنون حقاً.. وهؤلاء هم المستحقون للمغفرة والرزق الكريم:

"عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، قَالَ: سَأَلْتُ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ عَنِ الْأَنْفَالِ، فَقَالَ: "**فِينَا مَعْشَرَ أَصْحَابِ بَدْرٍ نَزَلَتْ حِينَ اخْتَلَفْنَا فِي النَّفْلِ، وَسَاءَتْ فِيهِ أَخْلَاقُنَا، فَانْتَزَعَهُ اللَّهُ مِنْ أَيْدِينَا، وَجَعَلَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَم ـ فَقَسَمَهُ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَم ـ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ بَوَاءٍ، يَقُولُ: عَلَى السَّوَاءِ**"[1]

هذه "التربية الربانية" هي التي تحمي المؤمنين من **الانسياق وراء الأطماع، والتكالب على المغانم، والطمع في الثروة، والمناصب، والجاه، والمكانة..** هذه الثروات حكمها إلى الله، ورسوله الذي يأخذها ليوزعها بالعدل، ويمنع تكدس الثروة في أيدي عدد قليل من الناس ويُحرم منها بقية المجتمع، والخلفاء الراشدون من بعده يمضون بهذا الحق والعدل لا يستأثرون بشيء لأنفسهم أو جماعتهم دون الناس.. فهذه الأطماع هي التي تُفسد ذات بين المسلمين؛ وتُنشأ بينهم التحاسد والتباغض والغل والتباعد والظلم والفساد؛ لذا حذر منها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أشد التحذير:

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَم ـ : "**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ "قَالُوا: بَلَى، قَالَ: "صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ**"

وَيُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيه وَسَلَم ـ أَنَّهُ قَالَ: "**هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**"[2]

---

(1) [مسند الإمام أحمد/ 22240]

(2) [جامع الترمذي/ 2509]

وفي رواية: "**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمُ الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ...**"[1]

فالتمكين والقتال إنما كان باسم الله، في سبيل الله ـ وجزاؤه عند الله جل جلاله ـ فلم يكن في سبيل المغنم، ولا المنصب، ولا الاعتداء، ولا للثأر الذاتي، ولا للعلو والشهرة، إنما كان لتكون كلمة الله هي العليا:

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ فَقَالَ الرَّجُلُ: يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانُهُ فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: "**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**"[2]

فالقيادة المؤمنة تتمسك بالسنة النبوية السياسية[3] في سياسة المال ـ وغيرها من الشؤون ـ والمجتمع المؤمن يتمسك بصلاح ذات البين، ولا يجعل محاضنه ينشأ فيها الحرص والشح والطمع والاحتكار والتكالب على الدنيا، والفرد المؤمن تقي نقي منفق في سبيل الله، والقيادة والمجتمع والأفراد جميعهم مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى يشد بعضه بعضاً بالحق والعدل، والتراحم والتواد، والوحدة والألفة.

***

(1) [جامع الترمذي/ 2501]

(2) [صحيح البخاري/ 2810]

(3) [انظر درس "السنة النبوية السياسية" في كتاب: "العقيدة السياسية في التصور الإسلامي"]

20- التولي عن الجهاد وحمل الرسالة.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٢٦ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَـٰنَـٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَـٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾ [الأنفال: 24-28]

مِن أخطر أمراض التمكين هو: **الشعور بالراحة والمكافأة على الخروج من "مرحلة الاستضعاف" وزوال خطر الظالمين..** هذا المرض يواجهه القرآن الكريم بكل حسم ووضوح؛ إنَّ التمكين ـ في الميزان الإسلامي ـ يعني: **"الحياة الجهادية" الأبدية المستمرة**، لقد نادى الله ـ جل جلاله ـ على المؤمنين أن يستجيبوا لما فيه حياة إيمانهم، وحياة مجتمعهم، ووجودهم الإيماني والاجتماعي والسياسي كله، ويحذرهم من "الانقلاب" على الأعقاب، ويهددهم بزوال الإيمان من قلوبهم إنْ قعدوا عن الاستجابة لله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنَّ القعود عن الاستجابة، والطمع في الراحة، والشعور بمرحلة المكافأة والجائزة حتماً **سيُوقع الأطماع والتباغض والتحاسد وفساد ذات البين والظلم والفساد**؛ ومن هنا تأتي الفتنة التي لا تصيب الظالمين فحسب، بل تصيب أيضاً الساكتين على الظلم، ومن ثم تصيب المجتمع كله.. وعلى الجانب الآخر: هناك عدو بغيض متربص لن يكف عن حرب الإسلام والمسلمين إلى يوم الدين!

وتُذّكر الآيات الكريمات المؤمنين بماضي الاستضعاف، وقلة العدد والنصير، ثم جاء نصر الله، الذي يأتي لمن ينصر دين الله وكتابه ورسالته: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ [الحج: 40]

إنَّ القعود في "مرحلة التمكين" يساوي في ميزان الله "خيانة الله ورسوله" وخيانة للأمانة التي حملتها هذه الأمة، وورثتها عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتبليغ رسالته والدفاع عن دعوته، ونشرها بين العالمين، وتحرير المستضعفين.. وإذا كان الذي يمنعهم عن الجهاد وحمل الرسالة والشهادة على الناس هو متاع الدنيا والشح والحرص على الأموال والأولاد فهم إذن "فتنة" يجب الحذر من تأثيرها على النفس والمجتمع، ويُعرّض جيل هذه الأمة إلى خطر الاستبدال: ﴿هَـٰٓأَنتُمۡ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَـٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد: 38]

***

21- التولي عن إعداد القوة.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال: 45]

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنفال: 60]

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال: 73]

إنَّ الانشغال في "مرحلة التمكين" بالرفاهية والراحة، يؤدي ـ حتماً ـ إلى زوال هذا التمكين على المدى الطويل، لقد أمر الله الأمة المسلمة أن تظل مُعلّقة بالله، وبذكره الدائم في كل قول وفعل وفكر وحركة وسلوك وجهاد ونية وعمل، وحذرها من التنازع الذي يؤدي إلى الفشل، وزوال الحضور والشهود الحضاري.

وأمرها بالجد التام والإتقان المتفاني في "إعداد القوة" التي ترهب الأعداء في كل مكان..

و"إعداد القوة" ليس مجرد حشد عتاد؛ **إنما هو "نظام حياة" لمجتمع جهادي رباني يقوم على الإخلاص والجد والعمل والصبر والمصابرة والمرابطة**، يقوم على الحق والعدل والتراحم والتواد، يقوم على الإبداع والإتقان وحسن التوكل على الله، يقوم على استفراغ الجهد والوسع في كل سبيل، يقوم على تحصيل العلوم التطبيقية والعملية.. ويطلبها المؤمن من كل مكان، يقوم على نظافة الأخلاق والسلوك والشعور في مجتمع لا يشيع الفواحش ولا التظالم ولا الربا، يقوم على الأمانة والتجرد وتوسيد وإسناد الأمر لأهله، يقوم على التواضع والكرم والمروءة والإباء والشجاعة والإقدام والتواضع وولاية المؤمنين بعضهم بعضاً.. ثم بعد تحصيل كل قوى ممكنة، يتبرأ من حوله وقوته إلى حول الله وقوته، فما كان تحقيق القوة وإعدادها إلا حباً لله، واستجابة لأمره، فهو ـ سبحانه ـ الذي من عنده النصر والعزة والتمكين.

هذا المجتمع يقوم على ولاية المؤمنين بعضهم بعضاً باسم "الإيمان بالله"، والتي دونها "الفساد الكبير"، ولا رابطة لهذه الأمة إلا بهذا الإيمان، ومهما حاولت أن تستمسك بغيره من الروابط فهي إلى ضياع وزوال وفساد.

***

22- التحول إلى الفسق، ووقوع الاستبدال.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: 24]

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [التوبة: 29]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة: 38-39]

حب الله ورسوله والجهاد في سبيل الله هو طريق التقوى، ودونه طريق الفسق والتحول إلى "مجتمع الفاسقين" ورغم أن الله أحل الطيبات لعباده المؤمنين، لكن عندما تتحول هذه الطيبات إلى عبودية لها، وتَحول دون الجهاد في سبيل الله، وتملأ على الرجل قلبه، فقد تعس وتحول من "التقوى" إلى "الفسق".. جاء في الحديث الشريف: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ قَالَ: "**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ، وَالْقَطِيفَةِ، وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ، لَمْ يَرْضَ**"[1] والفسق يؤدي بالمجتمع إلى حالة الغثائية التامة والوهن الشامل التي تستدعي الأعداء للتكالب على هذه الأمة الضعيفة التي تركت حياة الجهاد والكفاح، وركنت إلى الدنيا وزينتها، ونسيت دورها ورسالتها[2]: "عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ: "**يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**"[3]

فالأمة المسلمة مأمورة بالاستمرار في حياة الجهاد ـ وما يلزمه من إعداد ومقتضيات ـ وإعلاء كلمة الله في الأرض، وتعبيد الناس لرب العالمين، وتحطيم القوى التي تقف في وجه الدعوة الإسلامية، فالله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: 33]

---

(1) [صحيح البخاري/ 2887]

(2) [انظر: مقال "غثاء السيل"]

(3) [سنن أبي داود/ 4297]

وإنْ تركت هذه الأمة حياة الجهاد ـ كما هو حاصل الآن! ـ فسيقع عليها عذاب الله، ويستبدلها بغيرها.. وهذا الاستبدال يعني: انتهاء الدورة الحضارية لهذا الجيل القاعد؛ ليأتي جيل جديد يمضي على صراط الله المستقيم.. وفي تلك الأثناء ستعلو الأمم الكافرة، ونَتَسلّط على هذه الأمة تريد ردتها عن دينها، واستعبادها، واحتلالها وتمزيق وحدتها.. ولا سبيل للخروج من الاستضعاف، والاستمرار في حياة التمكين إلا **بالجهاد الدائم في سبيل الله، والعمل على إظهار دينه على كل العالمين.**

***

23- التهاون في مواجهة المنافقين.

قال تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [التوبة: 67-68]

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة: 56]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: 73]

تَتبع القرآن الكريم في سور كثيرة أحوال المنافقين بإسهاب طويل، وتفصيل دقيق؛ لتحذر الأمة المنافقين، وتحذر أن تقع في مثل أحوالهم.. وإنما ينشأ "مجتمع النفاق" في حالة التمكين؛ حيث الأمان، والرفاهية، والاستقرار، والطمع في المغنم والمنصب... إلخ،

ينسلخ المنافقون من أحكام وآداب وشريعة الإسلام، ويريدون أن **ينتسبوا** ـ بالاسم فقط ـ للإسلام والمسلمين، و**ينسلخوا** ـ بالفعل ـ من أحكام وأوامر ونواهي وشريعة الإسلام، بل ويتحالفون مع أعداء الإسلام للقضاء على حقيقة الإسلام، والتمسك بالاسم الظاهر فقط! وفي "سورة التوبة" المباركة عرضت بعض أحوالهم مثل:

هروبهم من تكاليف الجهاد ومقتضياته، وإرادة الخبال والاضطراب في الصف المسلم، ونشر الفتن والإرجاف، وفرحهم بمصاب المؤمنين، وحزنهم لانتصارهم! وإيذاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمصلحين من بعده، والاستهزاء بآيات الله وأحكامه، وأمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف، وامتناعهم عن الإنفاق في سبيل الله، وإجادة التهرب والاعتذار والتفلّت من التكاليف، وجعل المساجد ـ ومؤسسات الأمة ـ وسيلة للتفريق بين المؤمنين وحرباً وضراراً عليهم! بينما مجتمع المؤمنين على العكس من كل ذلك، فهم:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: 112]

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة: 71]

ومن أجل هذا كله أمر الله ـ تعالى ـ نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بجهاد هؤلاء المنافقين، والغلظة عليهم.

ووجود "مجتمع المؤمنين" هو الضمانة لطهارة المجتمع من ظاهرة النفاق والمنافقين.. وعندما يتخلى المجتمع المسلم عن دوره ورسالته، وينحرف هو الآخر عن شريعته، فإن نبتة النفاق تظهر فيه وتقوى، وإنْ لم تجد رادعاً ومانعاً فإنها تشتد وتنتشر أكثر فأكثر؛ حتى تتسلط على حكم الأمة وتملك قرارها السياسي والتشريعي والفكري والتربوي؛ وحينها يجر هؤلاء المنافقون الأمة كلها نحو "حياة النفاق"! والعياذ بالله.

ولا سبيل للخروج من حياة النفاق إلا بجهاد هؤلاء المنافقين، ولأنهم ما زالوا ينتسبون بالاسم لهذه الأمة كان جهادهم جهاد "أهل البغي"[1] منعاً للفتنة في الدين وفي الأمة.. **فوجودهم أخطر شيء على دين الأمة**، وقتالهم قتال أهل البغي ـ لا الكفر المحض ـ ليمنع الغلو في التكفير ورمي عموم المسلمين بالشرك والردة؛ وليمنع انقسام الأمة؛ وليرفع الحرج عن كثير ممن يظن فيهم خيراً وهو لا يعلم!

ولقد كان جهاد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمنافقين جهاد اللسان؛ حيث لم يكونوا على رأس السلطة أو يملكوا زمام التربية والتوجيه.. فلم يكن لهم نصيب من (التمكين السياسي والتشريعي) أو (التمكين الثقافي والفكري والاجتماعي). أما وقد تمكنوا من الوصول إلى السلطة فوجب جهادهم من كل طريق، والمحاولات السلمية[2] ـ متى كانت ناجعة وناجحة ـ فهي أفضل من القتال ـ لأنه قتال داخل الأمة ـ فالجهاد مفهوم أوسع من القتال، والقتال أحد أنواعه..

ولا بد لكل جهاد ولكل تغيير من "قوة" تدفعه وترسخه وتأتي بثماره، ومتى انسدت الطرق السلمية لإقصاء هؤلاء المنافقين فلا مفر من قتالهم قتال أهل البغي، بعد إقامة الحجة، وبلاغ الرسالة، وتوفر الحاضنة، والتجرد لله رب العالمين.

وإنَّ تحول الأمة من "التمكين" إلى "الاستضعاف" يبدأ عندما تتهاون الأمة في جهاد هؤلاء المنافقين وفي منعهم من التسلّط على الأمة أو فتنتها عن دينها، ومواجهتهم تحتاج إلى مجتمع حي فاعل مؤمن تقي؛ ينتفض ويطرد النفاق وأمراضه، ولا يطيق أن يرى أفعالهم تنتشر في جسد الأمة فتُوهنه وتُضعفه وتُفككه.

***

(1) [انظر: بحث "الفئة الباغية"]

(2) [انظر مقال: "السلمية والعنف"، وأجهزة الاستخبارات الفكرية في مواجهة التمرد "المدني" و"المسلح"، و"خط الفاعلية"]

24- الكفر بنعم الله.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ [إبراهيم: 28-31]

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: 34]

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًاۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: 58]

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: 7]

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: 112]

لكل نعمة سبيلان: إما سبيل "الشكر والعرفان"، وإما سبيل "الكفر والنكران". نِعم التمكين تتزين وتتلألأ وتتكاثر، والمؤمن لا يغتر ولا يظلم بل يجتهد ليشكر هذه النعم بعمل الصالحات، وغير المؤمن يمضي في الغرق فيها فينكر فضل المُنعم ـ سبحانه ـ وكل ما فيه الإنسان من خير هو من نعم الله، وعليه شكرها: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَإِيَّٰيَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: 51-53]

وقد يأتي جيل من أجيال التمكين يظن هذه النعم محض استحقاق له، وأنه أتاها على علم وقدرة وكفاءة، وليس لأحد فضل عليهم! يأتي جيل لم يشتد عوده في حياة الاستضعاف، فيفسده الترف والنعيم.. فيُبدلوا "نعمة الله" كفراً وجحوداً.. يُبدلوا نعمة "الشرع الإلهي" بأهواء الجاهلية والطاغوت، ويُبدلوا نعمة "الاستقامة" بالانحراف، ويُبدلوا نعمة "الاعتدال" بالميل واتباع الشهوات، ويُبدلوا "الاقتصاد" بالتبديد والإسراف، ويُبدلوا نعمة "السكينة والرضى" بالضنك والسخط، ويُبدلوا نعمة "الاهتداء والرشد" بالتيه والضلال، ويُبدلوا نعمة "الحلال الطيب" بالحرام الخبيث، ويُبدلوا نعمة "ولاية المؤمنين" بولاية الكافرين، ويُبدلوا نعمة "الجهاد في سبيل الله" بالقعود أو بالقتال في سبيل الطاغوت، فيُحلوا قومهم دار البوار.. بعدما جعلوا لله أنداداً في كل شيء، في التشريع والحكم والمرجعية، وفي التحليل والتحريم، وفي النظم والعقائد، وفي العبادة والنسك!

وضمان التمكين الرباني إنما يكون بشكر نعم الله، **وما الإيمان إلا شعور نعم الله، وشكر هذه النعم**، وشعور عظمة المُنعم بهذه النعم ـ جل جلاله ـ هذا الشكر يُترجم إلى **عمل الصالحات**، من إقامة الصلاة ـ التي تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ـ والإنفاق في سبيل الله، الذي يحرر النفس من المادية التي تخلد به إلى الأرض؛ ليظل معلقاً بالسماء، متطلعاً إلى الجزاء في اليوم الآخر، والجهاد في سبيل الله لا في سبيل الطاغوت.

***

25- تقديم المصالح المادية على المُثل العليا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٩١ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرۡبَىٰ مِنۡ أُمَّةٍۚ إِنَّمَا يَبۡلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٩٢ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٣ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٤ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩٥ مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾ [النحل: 90-96]

أمر الله تعالى الأمة المسلمة ـ بأفرادها وجماعاتها ونظمها ـ بالعدل المطلق الجازم الصارم الذي لا يُفرق بين غني وفقير وقوي وضعيف وعدو وصديق وقريب وبعيد ومحبة وبغض وجنس وقوم، وأمر بالإحسان الذي يُبقي الود في القلوب؛ ويُسكب السكينة والطمأنينة في المجتمع، ويشجع على فعل الخيرات، وإيتاء ذي القربى في صورة التكافل الاجتماعي في مدلوله الواسع الشامل، ونهى في مقابل ذلك عن كل فحشاء ومنكر وبغي الذي يهدم المجتمعات ويُفسخ وحدتها، ويُحول حياتها جحيماً..

وأمر بالوفاء بالعهود مع كل ذي عهد ـ مسلماً كان أو غير مسلم ـ ذلك **قاعدة الحكم الذي يقوم عليه النظام، ويتربى عليه المجتمع، وتقوم به الدعوة..** وأول وفاء بالعهد هو وفاء العهد مع الله؛ بطاعته وبإخلاص العبادة له، وبالتمسك بكتابه، وبالتحاكم إلى شريعته، وبخلافة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خلافة الرشد والاستقامة والعدل، والوفاء في حمل رسالته وتبليغ دعوته، والوفاء مع الناس وإتمام عهودها لهم؛ نظافة في الشعور والسلوك، ودونها الخديعة والغش والغدر والخيانة.. التي تهدم المجتمعات وتفسد النفوس، وتقوض النظام، وتحول الحياة إلى غابة موحشة متوحشة!

وتصور الآيات حال من يغدر ويغش ويخدع وينقض العهود، كحال امرأة ضعيفة العزم فاسدة الرأي تنقض غزلها من بعد قوة، فما أن يتشكل ويُوشك على التمام حتى تفسده! والأمم كذلك في حال التمكين.. إنما **يهدمها الخداع والغش والخيانة بعد قوة**؛ حيث اتخاذ العهود والأيمان دخلاً وغشاً وخديعة باسم "مصلحة الدولة" أو "الوطن" طلباً وبحثاً عن الأقوى مادياً: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ﴾! نقض العهود للبحث عن الأمم الأربى الأقوى عدداً وقوة.. والوفاء هنا إنما هو "ابتلاء" **لاختبار العزيمة والوفاء بالعهد** رغم ما يلوح من مصلحة مادية!

و"السياسية البراجماتية" لا تعرف الأخلاق، ولا الوفاء، ولا العهود.. فتنقضها عند أول مصلحة ظاهرة! ولا تعبأ بدين أو خلق، وهذا مما حرّمه الله.. ثم إن **المصلحة الحقيقية الحقة تظهر في النهاية..**

لقد دخلت أمم في دين الله لما رأته من وفاء المسلمين بعهودهم ونظافة سلوكهم، وتركهم الفرصة القريبة التي تبدو فيها المصلحة المادية الملوثة بالغدر والخديعة والظلم تلوح وتُغري، ويتمسكون بالعهد مهما كلفهم ذلك.

وقد جعل الله نقض العهود ـ حتى مع الكافرين ـ هو انزلاق للهاوية، وعاقبته وخيمة، لما فيه من صد عن سبيل الله، وإفساد لروح الدعوة، وطهارة الرسالة.. وما يُظن من مصلحة قريبة إنما هو "ثمن قليل" لا يساوي شيئاً أمام الوفاء بالعهود.

والعهود في الإسلام إنما هي على أساس **البر والتقوى** لا على أساس الإثم والفسوق والعدوان والبغي واستغلال الدول والشعوب، وأكل حقوق الناس؛ فوجب احترامها، والوفاء لأصحابها..

وإنْ خافت الأمة خيانة الطرف الآخر نبذت إليه عهده على سواء حيث لا غدر ولا خيانة: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: 58]

وفي التمكين: يُقدم البعض المصالح المادية الميكافيلية الملوثة بالباطل، وتصبح الأخلاق في عالم السياسة أضحوكة ومذمة![1] ويظنون في أنفسهم أنهم عقلانيون واقعيون واعون! بينما الولوج إلى هذا الطريق وهذه السياسة التي تقدم المصالح المادية الملوثة بالباطل والظلم على المثل العليا، وتستبيح الغدر والخيانة والغش هو ولوج إلى الهاوية في نهاية الطريق، مهما بدى في أولى خطوات هذا الطريق من علو للظالمين، أو انتفاش للفاسدين.. فمهما بلغوا ومهما جمعوا فهم إلى فناء: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: 96-97]

﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: 205-207]

***

(1) [انظر: درس "الأخلاق السياسية"، في كتاب "العقيدة السياسية في التصور الإسلامي"]

26- الترف المُفسد، وتحلل الأمة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإسراء: 16-22]

عندما يغيب في مرحلة التمكين "تحكيم الشريعة، واتباع السنة النبوية السياسية[1]" تتغلب الأهواء والمصالح، ويُتداول المال بين قلة من الأغنياء والمترفين وحسب، هذا الترف ـ الذي لا يُبالي بحلال ولا حرام ـ يُنشأ مجتمع الفاسقين المنحرفين عن كتاب الله؛ الذين ترهلت نفوسهم، ورتعت في الفسق والمجون، وعندما يتسلّط هؤلاء المترفون الفاسقون على حكم الأمة وفكرها وتوجيهها فإنهم يُوردونها موارد الهلاك والضياع، وإذ لم يجدوا من يردعهم ويأخذ على أيديهم ويمنع فسقهم وفسادهم، واستهتارهم بالقيم والمبادئ والأعراض والدماء والأموال والحرمات، فقد فسد الاجتماع الإسلامي، والحكم الإسلامي، والعمل الراشد بوجود مثل هؤلاء المترفين الفاسقين على رأس الأمر..

فإرادة الله وأمر الله ـ في الآية ـ ليست هي قهراً على الإنسان، ولكنها ترتب النتيجة على السبب.

والله ـ جل جلاله ـ لا يأمر بالفسق ـ فالله لا يأمر بالفحشاء ـ إنما هي سنته وحكمته وعدله. إنَّ وجود وظهور المترفين الفاسقين ذاته إنما هو دليل على تفكك الأمة، وتخلخل بناؤها، وأنها سارت في طريق الانحلال، وتحللها من فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتمكين لدين الله في الأرض. جاء في الحديث الشريف: "عَن أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجَ النَّبِيِّ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلّم ـ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلى اللهُ عَليه وَسَلّم: **نَعَمْ "إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ"**[2]

إنَّ الإسلام لم يُحرّم المتاع الطيب من الحياة الدنيا، ولم يُشجع على الرهبانية.. بل أمر بالاعتدال، والتوازن: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: 81-82]

---

(1) [انظر: درس "السنة النبوية السياسية"، في كتاب "العقيدة السياسية في التصور الإسلامي"]

(2) [موطأ الإمام مالك/ 1864]

لكن الترف المفسد ليس هو المتاع الطيب، الترف المفسد إنما يمضي في طريق الشيطان، لا سبيل الله، ويدوس في طريقه على كل شيء؛ على المبادئ والإنسانية والحقوق، وقبل كل ذلك على الشرع الإلهي..

وما تَسلّط المترفون الفاسقون على أمة إلا **عقوبة لهذه الأمة على امتناعها أو تكاسلها عن أداء دورها في** منع الفسق والفساد، والأخذ على أيد الظالمين والفاسقين، ومدافعتهم؛ ونتيجة لأنها لم تصلح نظامها الذي يجب أن يمنع تسلط المترفين المفسدين.

الترف المفسد هو حال من يريد العاجلة.. من يريد متاع الحياة الدنيا وزينتها، والله ـ جل جلاله ـ يعطي هؤلاء حسب مشيئته وعدله وحكمته، ومن أراد الآخرة ـ وسعى له سعيها وعمل لها عملها، واتقى الله بالشعور والسلوك ـ فأولئك هم المفلحون.

وإنَّ عطاء الله لمن يريد الدنيا، ومن يريد الآخرة.. ممدود لا مانع له؛ يعطي بحكمته وقدرته وقدره وعدله ومشيئته المطلقة من كل قيد! فالتفضيل في الدنيا ليس هو دليل على محبة الله أو رضاه التام. فالغنى ابتلاء (امتحان للشكر) والفقر ابتلاء (امتحان للصبر)، وفي كلا الحالين تكمن "الرحمة الواسعة" التي تدفع الإنسان للجوء إلى الله، وتكامل المجتمع بعضه مع بعض، قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: 32]

فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، وقد يتفاضل البعض على البعض في الدنيا ابتلاء منه ورحمة، لكن الفضل العظيم والرحمة التامة والجزاء العميم هو فضل الآخرة، وهو فقط لمن أخلصوا دينهم لله، ولم يجعلوا معه إلهاً آخر.. لم يجعلوا أهوائهم أو شهواتهم أو أموالهم أو جاهليتهم أو عاداتهم أو حرصهم أو قوتهم آلهة تعبد من دون الله أو مع الله.

وإنَّ أولويات الرحمة بالخلق هي: "**تبليغهم الحق، وإقامة هذا الحق في واقع الحياة، وحمايته والدفاع عنه، وإنكار السوء والباطل والفسق والخبث والظلم.. رحمة بهم**"؛ فلا ينصرف معنى الرحمة أبداً على أنه التهاون والتجاوز في وضع أُناس هم في فسوق أو نفاق أو تحلل وفساد والعياذ بالله! كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: 156]

فكان من مقتضيات الرحمة الإلهية تخصيصها للمتقين في معرض الحديث عن تهوك يهود..

وتخصيصها للمؤمنين في معرض الحديث عن المنافقين: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة: 61]

وذكرها في الجهاد: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [آل عمران: 157]

وذكرها للمذنبين التائبين: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنعام: 54]

ومن أعظم أنواع رحمته "الحساب والجزاء": ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام: 12]

ومن رحمته أن بأسه لا يُرد عن القوم المجرمين: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأنعام: 147]

والكتاب والنور الإلهي رحمة في ذاته كما قال نوح ـ عليه السلام ـ: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [هود: 28]

والقرآن الكريم هو الرحمة التامة: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: 82] وهو الفضل والفرحة: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: 58]

وهناك الرحمة بالخلق في تدبير الرزق، والحلم الواسع، والتمتع في الحياة، وتقدير المقادير: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ [الإسراء: 100]

والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ورسالته رحمة للعالمين؛ حيث بها يزول الظلم، ويُقام العدل، وتنعم البشرية، ويحيى من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة، وبها يعم السلام العالم: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: 107] والمسلم يتخلّق بهذا المعنى القرآني الرباني للرحمة بشمولها، وإحاطتها بعالم الغيب والشهادة.[1]

***

(1) [سنعود بالتفصيل مرة أخرى ـ إن شاء الله ـ حول هذا الموضوع في مرض رقم (29)، والذي بعنوان: "**التمتع بزينة الحياة الدنيا والغرق فيها**"]

27- اتخاذ الأولياء من دون الله.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤٢ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ٤٣ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٤ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ٤٥﴾ [العنكبوت: 41-45]

في مراحل التمكين الأولى ـ وقبل التمكين الكلي ـ قد يظن البعض أن القوة والعزة والمنعة في ولاية الكافرين الأقوياء! وإنَّ "الحكمة السياسية" و"الفطنة والدهاء الدبلوماسي" و"إدارة الدولة" و"مصلحة الدولة العليا والأمن القومي" و"المصالح والمفاسد" و"الدولة الحديثة" و"النظام الدولي"... إلخ من التبريرات العَلمانية أو التي تحاول أن تحمل صبغة دينية مزيفة؛ كلها تحاول أن تجعل من "ولاية الكافرين"[1] قدراً مقدوراً لا مفر منه، وضرورة حياة ووجود!

بينما الله ـ جل جلاله ـ جعل الولاية له سبحانه ولرسوله وللمؤمنين، والعزة من عند الله:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ٥٥ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [المائدة: 55-57]

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾ [المنافقون: 8]

﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٣٢﴾ [الأحقاف: 32]

---

(1) كلمة "الكافرين" في القرآن الكريم تحمل مضامين: (**المحاربة في الدين، والإفساد في الأرض، ومحاداة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ونظم سياسية وعسكرية ودينية تحارب الإسلام والمسلمين حرباً لا هوادة فيها!**)، بينما هناك بعض "المُسالمين" الذين يريدون أن يأْمنوا ويُسالموا الأمة المسلمة، وهؤلاء (الأفراد والمجتمعات والجماعات) لهم البر والقسط وحسن الجوار، كما جاء في "سورة الممتحنة": ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩﴾ [الممتحنة: 8-9]

وهؤلاء ـ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ـ قد دمغهم القرآن الكريم بالنفاق لمجرد ولايتهم وتحالفهم وتناصرهم وتعاضدهم مع هؤلاء الكافرين.. والآيات مُعلمة لنا، وكاشفة لنا عن الحقائق والموازين الربانية: إنَّ هؤلاء الكافرين الأقوياء العظماء ـ أصحاب أعظم إنجازات مادية، وأقوى الأسلحة، وأغنى الموارد وأوسع شبكة تحالفات ـ **ولايتهم من دون الله، هي أوهن من خيوط العنكبوت**، وإن الله ـ وحده لا شريك له ـ هو "العزيز الحكيم" **العزيز**: الذي يعز عباده المؤمنين، ويذل من يشاء من الكافرين. **والحكيم**: في عطائه وفي ابتلائه وفي إمهاله للكافرين وتمتيعِهِمْ إلى حين.

إنَّ طلب ولاية الله ـ جل جلاله ـ هي طلب لولاية من خلق السموات والأرض بالحق.. ولاية القادر على كل شيء، والمدبر لكل شيء، والقوة الوحيدة المتحكمة في كل شيء.. وقد أنزل الكتاب الذي فيه عز هذه الأمة وذكرها، فما لها تُعرض عنه وتتخذ أولياء من دون الله!؟

إنَّ ولاية المؤمنين هي مع من "يقيمون الصلاة ويرفعون ذكر الله" ـ الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، ويقيمون نظامهم الاجتماعي والسياسي على هذا الأساس ـ و"يؤدون الزكاة" ـ علامة على التكافل الاجتماعي وعلو الشريعة الإلهية وبناء الاقتصاد الإسلامي ولوازمه ـ **وما ولاية الكافرين إلا الأمر بالفحشاء والمنكر والفقر والظلم والاستهزاء بالدين!**

والجميع مكشوف معروض أمام الله ـ سبحانه وتعالى ـ فأيهما يتخذ الإنسان:

ولاية من خلق السموات والأرض أم ولاية من قوته أوهن من بيت العنكبوت؟!

***

28- تَأييس المؤمنين من مواجهة الكافرين.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝٢ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٣﴾ [الأحزاب:1-3]

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾ [الأحزاب: 12]

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَاۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٨ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۝١٩﴾ [الأحزاب: 18-19]

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۖ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢﴾ [الأحزاب: 22]

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠ مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ۝٦١﴾ [الأحزاب: 60-61]

هناك مراحل في حياة الأمة لا هي استضعاف كلي، ولا هي تمكن كلي.. إنما بين بين، أو تمكين جزئي وفي طريقه للتمكين الكلي.

وفي كل مرحلة يظهر فيها المنافقون فإنهم يحاولون محاولاتهم في **تأييس المؤمنين من مواجهة الكافرين..** حيث الكافرون هم إخوان للمنافقين، وبينهما من النية والشعور والسلوك ما يجعلهم متشابهين حد التطابق، وإنْ انتسب المنافقون للإسلام، وانتسب الكافرون لمللهم ونحلهم؛ فالعلاقة بين الكفر والنفاق ليست مجرد تحالف مصالح عابر، بل هي "أخوّة منهجية" وتطابق في القلوب والمواقف ضد الأمة.

وقد كشفت "سورة الأحزاب" المباركة جزءاً من طبيعة هؤلاء المنافقين.. في مناسبة "غزوة الخندق" التي كانت شديدة على المؤمنين يوم تحزب عليهم الأحزاب؛ واجتمع عليهم الكفر، ونقض يهود عهدهم وأعلنوا حربهم: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزاب: 11]

حينها عَلت كلمة النفاق: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾!! وقد قالوها من قبل في بداية الصدام مع الكفر في "غزوة بدر": ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: 49]

وفي غزوة الخندق وعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يحفر الخندق مع أصحابه بفتح الروم وفارس: "قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، قَالَ: "قَالَ رَجُلٌ يَوْمَ الأَحْزَابِ لِرَجُلٍ مِنْ صَحَابَةِ النَّبِيِّ صَلى اللهُ عليه وَسَلم: يَا فُلانُ، أَرَأَيْتَ إِذْ يَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ: "**إِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُنْفَقَنَّ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ**"، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا، وَأَحَدُنَا لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْرُجَ يَبُولُ مِنَ الْخَوْفِ؟ ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُورًا﴾"[1]

فكل مواجهة مع الكافرين ـ وفي أي حال كان المسلمون ـ فإنَّ المنافقين يحاولون تأييس المسلمين من مواجهة الكافرين بمزاعم شتى؛ منها قوة العدو وعدده وعتاده، أو تحزبه وتحالفاته، ومن الجانب الآخر: إفشال المسلمين وزعم قلة خبرتهم بالحرب والقتال، وقلة عددهم وعدتهم، **ومباركة عجزهم والتمكين لضعفهم! وتخذيلهم، وتعويقهم، والإرجاف بينهم، وإعمال الخبال والاضطراب والبلبلة في صفوفهم، وتفكيك وحدتهم، وتفتيت عزيمتهم.**

هؤلاء يبغضون المسلمين، ويكرهون انتصاراتهم، ويقللون من إنجازاتهم، فهم أشحة عليهم بالقول الحسن والسلوك الطيب، والممارسة الكريمة.. ألسنتهم شديدة على المسلمين، حادة قاسية عليهم لا يريدون لهم خيراً، ولا نصراً، ولا تمكيناً..

وهؤلاء المنافقون لم يؤمنوا؛ فأحبط الله أعمالهم الصالحة، أو التي كان ظاهرها الصلاح. ونجد أمثالهم في كل عصر، وفي عصرنا هذا نجد منهم من يكون حقيقة أركان إيمانه ثلاث: **الإيمان بالطاغوت والإحسان في عبادته، ومباركة موالاة اليهود والنصارى المعتدين، ومحاربة كل داعية ومصلح ومجاهد.**

وبينما كان المنافقون يكادون يموتون من الخوف عند البأس والقتال، كان المؤمنون مطمئنون إلى وعد الله ورسوله، وما زادهم تحزب العدو عليهم إلا الإيمان والتسليم.. إنهم يرتكنون إلى الله، وولايتهم إلى الله ورسوله والذين آمنوا، فهم الحزب الغالب ـ بإذن الله ـ متى استقاموا على صراط الله المستقيم.

وهؤلاء المنافقون ـ الذين لا يأتون البأس والقتال، ويهربون عند الخطر، ويهرعون عند الغنيمة ـ لهم شأن آخر مع إشاعة الفواحش والمنكرات؛ فهذا هو المجال الذي فيه ينشطون ويهشون ويباركون، وقد حاولوا هذه المحاولات في المدينة المنورة؛ فنزلت الآيات الكريمات تحبب وتأمر نساء المؤمنين بالحجاب والاحتشام، وقطع الطريق على من يريد نشر الفتن والفواحش والمنكرات، وجاء الأمر الإلهي لرسوله الكريم بالشدة على هؤلاء المنافقين والأخذ على أيديهم بمنتهى الحسم والقوة.

(1) [جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للإمام الطبري/ (19: 39)]

ولهذا كان افتتاح السورة المباركة "الأحزاب" بالأمر المباشر للنبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بتقوى الله، ومَن مثله في التقوى!؟ ولكنها الزاد الحق لمواجهة محاولات الكافرين والمنافقين في تعويق مسيرة الأمة، وهي الزاد في جهادهم، وما على الأمة سوى: تحقيق التقوى، واتباع الوحي، والتوكل على الله، وكفى بالله وكيلاً، وهادياً، ونصيراً.

***

29- التمتع بزينة الحياة الدنيا والغرق فيها.

قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: 27-29]

عاش رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حياة الاستضعاف في مكة، هو والذين آمنوا معه؛ حتى حُوصِروا في "شعب أبي طالب"، وبلغ به الحال أنه كان يربط على بطنه الشريف الحجر من شدة الجوع! واستمر في دعوته ورسالته حتى أذن الله له بالهجرة؛ فكانت حياة التمكين في المدينة، إلا أن هذا التمكين لم يكن حياة الرغد، **لم يكن الجائزة على الصعاب والشدائد في حياة الاستضعاف!** بل كانت حياة كلها جهاد، فما كادت تمر الشهور في المدينة حتى يخرج في غزوة! ويقول "أهل الحديث": إن عدد الغزوات التي غزاها النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بنفسه تسع عشرة غزوة، بينما "أهل السير والمغازي" يقولون: إنها بلغت سبعاً وعشرين غزوة!

وفي أول غزوات التمكين ـ يوم الفرقان ـ قال لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يوم بدر: "**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ**"[1] لقد كان هذا ما يَعدهم به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم لما جاءت "غزوة الأحزاب"؛ وانكسرت فيها أحلاف الكفر، وتضعضعت فيها شوكة يهود بعد "غزوة خيبر"؛ وورثوا أرضهم وديارهم، وكثر الفيء والمال، جاءت أزواجه يسألنه التوسع في النفقة الحلال، ولما كان بيت النبوة هو القدوة والمثال، كان لا بد من حياة الكفاف والكفاح، دون زخرف الحياة وزينتها؛ وجاءت الآيات الكريمات تُخَيِّرُهُن بين حياة الترف والزينة، وجعل مقابلها الله ورسوله والدار الآخرة، فاخترن الله ورسوله والدار والآخرة..

والدرس المستفاد للخلفاء من بعده ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الحذر من "الحياة الدنيا وزينتها" وإن التمتع الطيب الحلال بها **لا بد أن لا يطغى على تكاليف الكفاح والجهاد**، وإنَّ الحلال الطيب ليس هدفاً بحد ذاته.. بل إنْ توفر فهو التمتع المعتدل، وإنْ لم يتوفر فهو الصبر الجميل.

هذا الدرس الهام والخطير تواجهه الأمم في حال الضعف والتمكين، فبنو إسرائيل ـ وهم تحت القهر الفرعوني المُذل ـ لما أرسل الله إليهم رسولاً من أولي العزم من الرسول ـ موسى عليهم السلام ـ ليُحررهم من

(1) [صحيح مسلم/ 1903]

هذا الاستعباد، قالوا له: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: 129]

فتساوى في حسم وموازينهم إيذاء فرعون، وتكاليف التحرر والخلاص؛ وظنوا أن هدف الرسول والرسالة أن يوفر لهم رغد العيش، ورفاهية الحياة، وهم جالسون منتظرون!

هذا الدرس الهام والخطير يجب أن يدركه أصحاب الدعوات، والقيادات.. حينما يحاولون إحياء الأمة من جديد؛ وتخليصها من أنظمة النفاق، ومن احتلال الأعداء المحاربين..

إنَّ الجماهير تحت القيادة الفاسدة والخائنة والعميلة تتقلب في مشكلات، وكوارث، وبلايا لا تنقطع ولا تنتهي! وتقوم المعارضة السياسية ـ سواء الإسلامية أو العَلمانية[1] ـ على وعود الرفاهية، والرغد، وحل كل المشكلات، والتقدم والازدهار... إلخ! وليست هذه السياسة في الإسلام؛ بل هي "**سياسة مادية علمانية**" وإن تَزيت بزي الإسلام في أحيان! **هذه السياسة تُعلم الجماهير أن من يحقق لها الرفاهية ـ من أي طريق ـ فهو القائد المنشود، هذه السياسة لن تُشبع الجماهير أبداً، فمهما تحقق لها من الرفاهية ستظل تطلبها أبداً، ولا حد لها!** ومهما انتقلت أجيال من الحضيض إلى القمة ـ ولنفترض أنه كان باسم الإسلام ـ ستأتي الأجيال التالية تسأل المزيد، ولن تتذكر الأجيال السابقة والأحوال التي تغيرت! طالما أن القيم والموازين هي "**موازين مادية دنيوية**"، تطلب رضى الجماهير من أجل الفوز بالانتخابات أو نحو ذلك.

السياسة في الإسلام (ودور الفرد والجماعة والنظام) هي: **التمكين لدين الله في الأرض، وحمل رسالته وتبليغ دعوته**، هي: قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقومه يساومونه على دينه ودعوته: "**يا عماه، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي، وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي، عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ**"[2]..

والجزاء من وراء هذا العمل وهذه السياسة وهذا الجهاد، ليس هو رغد العيش ورفاهية الحياة بل هو: "**جنة عرضها السموات والأرض**".

فالسياسة في الإسلام هي: أن **يسأل كل فرد عن دوره وكفاحه وجهاده**، وليس عن مغنمه ومكسبه وربحه في الدنيا! وفي نفس الوقت: ليس هذا معناه هضماً لمغنمه ومكسبه وربحه، فالله جعل الغنائم والأموال لله والرسول من حيث المبدأ العام، ثم جعل منها قسماً لمصارف الزكاة المعروفة، ثم توزيعها بعد ذلك بالحق والعدل الرباني وفق شريعة الله.

---

(1) [انظر مقال: "المعارضة الإسلامية والعلمانية"، و"صور المعارضة السياسة وآفاتها"]

(2) [تاريخ الطبري/ 453]

يَتصور بعض من يزعم العمل للإسلام أنه عندما يصل إلى الحكم أنه سيحل للناس مشكلاتها كلها، وأن كل المعاناة التي هم فيها ستنتهي بمجرد وصوله هو وحزبه إلى الحكم! وهذا تصور ساذج، إذ **كل حق سيصطدم بواقع محلي وإقليمي ودولي معاند ومحارب لدعوة الله، ويشمئز من ذكر الله، ويحارب بكل قوة شريعة الله**؛ لأنه يعيش على الباطل والظلم والطغيان والعدوان وكثرة الفساد، فيجد نفسه أمام خيارين: إما الاصطدام بهذا الواقع، وإما المداهنة له والتفريط التدريجي؛ حتى يصل إلى الانسلاخ الكلي! فيختار الثانية باسم المصلحة والمفسدة، وباسم التدرج، وباسم مصلحة الدولة أو الحزب أو الجماعة، وباسم العجز والضعف... إلخ.[1]

الوصول إلى هذا الانسلاخ سببه الانحراف من بداية الطريق، الانحراف الذي قد لا يظهر بشكل واضح لأول وهلة، أو يلبس ثوب العقل والحكمة أو يلبس ثوب التبرير الشرعي، ثم ـ مع مرور الوقت وكثرة التحديات ـ نجد في نهاية الطريق الانسلاخ التام، والانحراف الكلي!

إنَّ البداية الصحيحة: هي بيان دور الفرد والمجتمع والنظام ومسؤولية الجميع أمام دين الله، وكتابه، وشرعه.. وتحمّل الجميع لهذه المسؤولية وتبعاتها ومقتضياتها، وعلى الجميع أن يتحمل تكاليف الكفاح والجهاد، والجميع ـ بلا استثناء ـ يتحمل ويتساوى في تحمّل الأعباء؛ وبهذا لا تكون وعود الرفاهية والرغد وحل المشكلات سيفاً مسلطاً على دين الله وشرعه، ومحطة التنازل عن الدين شيئاً فشيء..

إنَّ التمكين لدين الله لن يكون طريقاً مفروشاً بالورود، ولن تُحل مشكلات الفساد والبغي والباطل والجاهلية والعَلمانية من أول ضربة، ومن أول مرحلة.. وسيواجه المؤمنون معارك محلية وإقليمية وعالمية، **ويجب الاستعداد النفسي والفكري والتربوي والجهادي لهذه المعارك..**

وفي هذه "السياسية النبوية"[2] كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسبقهم لكل كفاح وجهاد، فلم يترك أصحابه ـ وحاشاه عليه السلام ـ لحياة الجهاد وحدهم، وهو آمن في سربه! بل كان أثبتهم وأشجعهم وأكثرهم فداء وتضحية، وكان شجعان الصحابة يقفون خلفه عندما يشتد البأس! وهذا يوضح أن **القيادة عندما تتقاسم الأعباء مع المجتمع، وتتحمل المعاناة أول ما تتحمل، والنظام يكون أول من يضحي**؛ تنشأ من هنا **القدوة، وتشيع روح التضحية والفداء، والمساواة، والرضى**؛ حتى تترسخ أقدام الإسلام بكفاح العظماء، كل على قدر وسعه وطاقته، وكل يقوم إلى جنة عرضها السموات والأرض.. ومن ثم لا يصح شرعاً ولا عقلاً أن تطلب القيادة من الناس تحمل الأعباء والمعاناة بينما هي ترفل في النعيم والترف؛ فهذه خيانة لله ورسوله والمؤمنين!

---

(1) [انظر مقال: "تطبيق الشريعة.. وحالة العجز"]

(2) [انظر: درس "السنة النبوية السياسية" في كتاب: "العقيدة السياسية في التصور الإسلامي"]

وأما حل المشكلات، وأما حياة الرفاهية ورغد العيش، فكل ذلك إنما يأتي كثمرة جهاد الفرد والمجتمع والنظام، وقد يمر جيل من الأجيال لا يرى ذلك الرغد ولا تلك الرفاهية ولا حلول لمشكلات الجاهلية، ولا حتى انهزام الباطل؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾ [غافر: 77].. فالوعد لم يكن هذه الثمرة العاجلة إنما: **"جنة عرضها السموات والأرض" وهذا الوعد بالجنة ليس للهرب من تحديات الواقع ومسؤولياته**، بل هي تحديد مباشر للمقابل الذي يأخذه من يسعى للتمكين لدين الله في الأرض..

إنَّ حياة الرفاهية والرغد والعدل والحق تأتي كثمرة للجهاد ـ أو قد لا تأتي ـ وعندما تأتي فيجب أن لا تشغلنا أبداً عن استكمال المسير إلى **"المهمة المقدسة": "الجهاد الأبدي" للتمكين لدين الله، وإعلاء رايته، وحمل رسالته، وتبليغ دعوته** ـ كما كانت هي حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مكة والمدينة ـ فأم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ تروي وهي في المدنية ـ حيث التمكين والغنائم ـ **"إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَتْ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ نَارٌ (أي: لم يطبخوا طعاماً)**، فَقُلْتُ: يَا خَالَةُ، مَا كَانَ يُعِيشُكُمْ؟ قَالَتْ: الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ جِيرَانٌ مِنْ الْأَنْصَارِ كَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلى اللهُ عَليه وَسَلم ـ مِنْ أَلْبَانِهِمْ فَيَسْقِينَا"[1]

ومع ذلك لم يخشَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أمته الفقر، إنما خاف عليها الغنى والدنيا الحلوة الخضرة، فقال عليه الصلاة والسلام: **"فَوَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ"**[2] وفي رواية: **"وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ"**..

وقال عليه الصلاة والسلام: **"إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ"**[3]

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [هود:15-16] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨﴾ [يونس: 7-8]

---

(1) [صحيح البخاري/ 2567]
(2) [صحيح البخاري/ 4015]
(3) [صحيح مسلم/ (55/17)]

ومن جانب آخر: إنَّ تأخر حل المشكلات أو العجز عن بناء حياة الرغد، لا يُتصور أن يكون بسبب فساد المؤمنين أو تكاسلهم أو ضعفهم أو جهلهم أو تخلّفهم أو طمعهم أو سفههم أو قلة حيلتهم أو انشغالهم بمتاعهم وذواتهم ومصالحهم، بل مفترض أن يكون لأسباب خارجة عن إرادتهم وقدراتهم وإمكاناتهم؛ لأنهم - وبحكم إيمانهم - يسعون قدر وسعهم وكل طاقتهم في محاربة الفساد الذي ظهر في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، وإنهم أخلص الناس في محاربة الفساد، وتمكين الإصلاح والحق - باسم الله ابتغاء مرضاة الله - وما يتبعه من رغد العيش وهناء الحياة، ولكن يجب أن لا يكون هذا هو المقياس في حس الناس وموازينها؛ بحيث من يحققه فهو الذي يحكم ويَسود بغض النظر عن توجهه وحركته! كلا!

الذي يحكم وله السيادة هو دين الله وشرعه وكتابه مهما كانت الصعاب والتحديات والعقبات، والذي يجب أن يستمر هو **الجهاد في سبيل الله**. والثمرة: "**جنة عرضها السموات والأرض**"؛ ولذا قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [التوبة: 111]

***

30- استسهال البغي.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: 16-23]

لطالما تحدث القرآن الكريم عن بني إسرائيل؛ لتحذر الأمة أن تسلك مسلكهم، أو تمضي على سنتهم[1].. فتهلك ـ والعياذ بالله ـ كما هلكوا، كما حذر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمته أشد التحذير من ذلك؛ فقال عليه السلام: "**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، قَالَ: فَمَنْ**"[2]

وحذر الله ـ تعالى ـ الأمة من قسوة القلب ونسيان الكتاب بطول الأمد: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: 16]

وتحدثت الآيات الكريمات ـ في سورة الجاثية ـ عن نِعم الله على بني إسرائيل، فآتاهم التوراة والإنجيل، وآتاهم الملك والحكم والنبوة، وآتاهم من كل شيء؛ حتى فضلهم على أهل عصرهم.. فكان بين أيديهم كل عوامل الصلاح، والفلاح، وكل النعم والعطايا والخيرات.. ولكن "اختلفوا" رغم وجود العلم والكتاب والحكمة والنور بينهم! وما كان سبب هذا الاختلاف إلا "البغي" الذي وقع بينهم، ولقد أوضحت آيات أخرى صوراً من هذا البغي، منها: أنهم ظلوا مُتعلقين بماضيهم وبجاهليتهم السابقة على التوراة والإنجيل، وتقليدهم الأمم الكافرة، والبحث عن القوى المادية بغض النظر عن الحلال والحرام والإيمان والكفر، فعبدوا الطاغوت، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم؛

---

(1) [انظر كتاب: "أمراض الاستبداد.. الجزء الثاني"]

(2) [صحيح البخاري/ 3456]

مما جعلهم يقعون في أشد ما يبغضه الله ويلعنه وهو "ولاية الكافرين" وإعانتهم على قتال إخوانهم في الدين، فآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض، ونشأ بينهم عبادة المال والجاه والسلطان، ففشت فيهم البغضاء والغل والتحاسد، جاء في الحديث الشريف: "**دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمُ الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعَرَ وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ...**"(1)

كل هذه الصور من البغي، وبعضها هو "الكفر البواح" أو يؤدي إلى الكفر الصريح، وقعت رغم توفر "العلم النافع" بينهم، ولكن حتى هذا العلم لم يَسلم من التحريف، والكذب، والتأويل بالباطل، وإظهار بعضه وإخفاء بعضه الآخر، حتى اندثرت معالم الدين الحق، والشريعة الصحيحة، فجاء الإسلام لينسخ ذلك.. وليُظهره الله على الدين كله.

ومقابل هذا البغي جعل الله هذه الأمة على الشريعة السمحة المحفوظة بحفظ الله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الجاثية: 18-20]

فكان الخروج عن هذه الشريعة هو خروج إلى الأهواء الباطلة، والجاهلية الصريحة.. ومن يخرج عنها ويرضى بذلك فأولئك هم الظالمون، وهم أولياء بعض، يتناصرون في الظلم، ثم يبغي بعضهم على بعض!

أما الله وولايته فهي لعباده المؤمنين بكتابه، والمتبعين لشريعته، والماضين على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

هذه الرؤية لأحوال الأمم السابقة، وبيان ذلك للأمة الوارثة.. هو بصائر للناس أجمعين، فكان هذا الدين رحمة لمن يبحث عن اليقين ويفتح قلبه للإيمان. ولا يستوي أصحاب السيئات مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا في الدنيا ولا في الآخرة.

لقد أقام الله ـ جل جلاله ـ هذا الكون كله بالحق، فهو الحق ـ جل جلاله ـ وما يُبدئ الباطل وما يُعيد، وما ينتفش الباطل حيناً من الدهر إلا بإذن الله، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون، وليبتلي الناس بعضهم ببعض..

(1) [جامع الترمذي/ 2501]

وأما الذين نبذوا كتاب الله، وجعلوا من أهوائهم وجاهليتهم وأوضاعهم إلهاً يتبعون تعاليمه ويخضعون لتوجيهاته، ويدورون معه حيث دار! فلا هادي لهم من بعد الله، وهم في العذاب والضلال المبين، وإن في ذلك لذكرى لأولي الألباب.

في التمكين: وفي حال امتلاك القوة، والقدرة على الفعل، وفي حال المضي على سنن بني إسرائيل في نبذ الكتاب، واتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، والافتتان بالدنيا والغرور بها.. لا بد أن يقع "البغي" والظلم والعدوان.. والتمسك بالملك العضوض والجبري والطاغوتي على حساب الدين والأمة والسيادة والكرامة والثروة؛ وذلك مما ينقض عرى الإسلام؛ وما يتبع ذلك من اتباع الأهواء، واختلاف الكلمة، والتفرق بغياً وعدواً، وولاية الكافرين من دون المؤمنين، وغثائية الأمة وتكالب الأعداء عليها؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل: 90] ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ [الأعراف: 33]

وجاء في الحديث الشريف: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلى اللهُ عليه وَسَلم: "**إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ**"[1]

وأمام هذا البغي يأتي دور الأمة في الانتصار من كل باغٍ، معتدٍ على الدين، والشريعة، والأمة.. وجهاده حتى يفيء إلى أمر الله وإلى شريعة الله.

وبلغت حساسية الشريعة في مواجهة البغي إلى قتال "الفئة الباغية" وإن كانت مؤمنة إن تعذر الصلح معها، فقال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩﴾ [الحجرات: 9]

فما بالنا إذا كانت هذه "الفئة الباغية" عارية من كل مقومات الإيمان والشرعية الحقة ـ سوى الانتساب بالاسم للإسلام! ـ فلا شك أن **جهاد البغاة من أهم ما ينصلح به حال الأمة المسلمة، وينتشر به العدل، وتعلو به الشريعة.**[2]

---

(1) [سنن أبي داود/ 4895]

(2) [انظر بحث: "الفئة الباغية"]

ومن جانب آخر: لا يمكن للأمة الوارثة للكتاب، والشاهدة على البشرية، والحاملة للدين الخاتم، والرسالة الخالدة أن تكون أمة باغية طاغية متجبرة، بل يجب عليها الاستقامة على صراط الله المستقيم، ولا تطغى، ولا تبغي، ولا تتفرق في سبل متفرقة عن سبيل الله..

فمشيئة الله وإرادته أن يُظهر هذا الدين على الأديان والأنظمة والأوضاع كلها، والأمة التي تحمل هذا الدين لا بد أن تكون **أمة الإيمان والحق والعدل والجهاد**:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف: 8-9]

***

31- ولاية من حادّ الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: 14-22]

موضوع الولاء والبراء (الولاية والنصرة للإسلام والمسلمين، والبراء من الكفر والكافرين) من الموضوعات التي يتعرض لها كتاب الله في مواطن كثيرة، ويؤكد على معانيها في مواضع شتى؛ لأنه **مقوم من مقومات الإيمان**، وقاعدة من قواعد الاجتماع السياسي للأمة المسلمة، الخروج منه خروج إلى "الكفر البواح"، وقد سبق أن تكلمنا هنا ـ بفضل الله ـ عن مرض: "**ولاية يهود**"، و"**طاعة الكافرين**" و"**ولاية الكافرين**"، و"**اتخاذ الأولياء من دون الله**"، ونجد أننا هنا أمام عرض جديد في "سورة المجادلة" مما يؤكد مدى خطورة وأهمية هذا الموضوع..

ونرى اليوم طرفاً من الحكمة من هذا التأكيد المتعدد الجوانب، المختلف الألوان، المتوحد النتيجة، حينما نرى أن **الموقف من "دولة يهود" يحدد صور السياسة الداخلية والخارجية لبلادنا العربية والإسلامية، ويحدد مصيرها أيضاً!** بسبب علوهم الثاني في الأرض، ونشرهم الفساد والحروب فيها، ونجد هنا موضوع "الولاء والبراء" يحضر بثقله الإيماني، وثقله الاجتماعي السياسي، ونرى أن المسألة يتحدد بها إيمان الأمة وحاضرها ومستقبلها!

***

تَستنكر الآيات الكريمات ـ في سورة المجادلة ـ على المنافقين الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم وهم "اليهود"، وقد توعدهم الله جميعاً ـ المنافقين ويهود ـ بالعذاب الشديد، والعذاب المهين، والخلود في النار أجمعين.. وهؤلاء الذين تمحضوا للشر والنفاق اتخذوا أيمانهم وقاية من غضبة الأمة المسلمة ـ حينها ـ عليهم، وظنوا في ذلك نجاة لهم! وحملوا هذا النفاق معهم إلى يوم القيامة، فيحلفون لله ـ ويا لحماقتهم! ـ أنهم مؤمنون، وهم ليسوا على شيء بعدما استحوذ عليهم الشيطان، وكانوا من جنده، ومن حزبه؛ فأنساهم ذكر الله، وإخلاص الدين لله، والبراء ممن حاد الله ورسوله، فأولئك في الدنيا في الأذلين؛ وها نحن نراهم اليوم وهم **يبيعون دينهم ويخونون أوطانهم ويستعبدون أمتهم، ويسارعون في يهود من أجل حماية عروشهم وسلطانهم؛ فنجدهم في منتهى الذلة والمهانة والحقارة والدناءة، ويُمعن اليهود والنصارى المعتدين في إذلالهم واحتقارهم والاستهزاء بهم والسخرية منهم!** وكلهم في ميزان الله أذلاء ملعونين.. فهؤلاء حزب الشيطان وجنده، الذين ينفذون غايته، ويقفون تحت لواءه، ويعملون بأجندته؛ كلهم خاسرون، والغلبة لله ورسله والمؤمنين، فسبحانه صاحب القوة والعزة والسلطان والملك، فأولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون.

***

وفي الاستضعاف: يحاول يهود وأعوانهم من المنافقين تدمير الأمة المسلمة من كل طريق، ومنع إحياءها ونهضتها، ومحاربة كل حركة إحيائية إسلامية؛ وينشرون فيها الفساد والظلم والإباحية والربا والفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ ويُولّون عليهم المنافقين الخُلص الذين تمحضوا للنفاق؛ **ليسلخونها من دينها، ويستعبدون أهلها، ويسرقون ثرواتها..** وأحياناً يُولّون عليها يهود الأصل والنشأة! ولكن يسمون أنفسهم بأسماء المسلمين وينتسبون للإسلام إلحاداً وزندقة. **والتحرر منهم هو الميلاد الجديد للأمة المسلمة.**

وفي التمكين: يحاول يهود وأعوانهم من المنافقين تدمير الأمة المسلمة من كل طريق، ولكن هذه المرة بطرق خفية ملتوية ناعمة ـ غير ظاهرة ـ من خلال المكر اليهودي في الاقتصاد والسياسة، ونشر الدسائس بصور خبيثة مموهة، واختراق المجتمع المسلم، ورجال الحكم والسياسة، من خلال التجسس، والجنس، والرشوة، والإغراء، والابتزاز... إلخ، مما عُرف به تاريخ المكر اليهودي قديماً وحديثاً؛ أولئك "حزب الشيطان" ورجاله والمنفذين لأهدافه، العاملين بأجندته.

والأمة بخير ـ في كل حال إن شاء الله ـ متى ذكرت الله كثيراً، واستقامت على طريقه أبداً، ومتى تبرأت من النفاق والكفر، وجاهدت الكفار والمنافقين، ووقفت تحت لواء الله، وكانت من حزب الله، وجنده، وعملت وفق شريعته، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ومضت على سنة الراشدين من بعده. والله ناصر دينه، ومعز جنده، ومتم نوره.

***

خاتمة

إنَّ العاصم من كل هذه الأمراض هو الله ـ جل جلاله ـ وكتابه هو النور التام المبين، والحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعلاج كل "أمراض الاستضعاف" و"أمراض التمكين" في كتاب الله، كما قال تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: 82]

فكتاب الله هو الشفاء والرحمة والنور والهداية.. متى أقبلنا عليه نلتمس هدى الله، واتباع هذا النور الذي يُبدد الظلمات ويشفي الأسقام.

***

وإذا كنا اليوم في "**مرحلة الاستضعاف**" ونبتغي الخروج منها؛ فنختم هذا البحث بكلمة عن "**مراحل التمكين**":

يَمر "**التمكين الرباني**" بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: (**تشخيص الأمراض والعلاج**)، وهي مرحلة علاج "أمراض الاستضعاف"، و"أمراض الاستبداد المتجبر الظلوم"، وعلاج الانحرافات الفكرية، والتشوهات الروحية والنفسية.. مرحلة تصحيح المفاهيم، مرحلة تغيير ما بالنفوس من قيم وموازين وأفكار باطلة، وهي تعتبر مرحلة إعداد وتعبئة وتربية وتأهيل لمرحلة التمكين. فالإيمان الصادق يؤدي إلى العمل الصالح، **والوعي الحق يؤدي إلى عمل الرشد.**[1]

المرحلة الثانية: (**مرحلة إعداد العدة للجهاد**)، وهي مرحلة دراسة الواقع، وحشد الناس، والتمكن من أدوات العصر، والترصد للثغرات، وتَحين الفرص، وتوحيد الصفوف، وتكّون القيادة، ومقاومة المنافقين والمرجفين والسفهاء والغلاة، وإعداد القوة، والاستعداد البدني والقتالي، وتكوين الاستخبارات، وتنظيم الألوية، واختيار اللحظة المناسبة.[2] (ولا يغفل فيها المصلحون عن تزكية النفوس واستمرار التربية الربانية)

---

(1) [انظر: كتاب "انحرافات في الحركة الإسلامية" ، وكتاب: "أمراض الاستبداد.. الجزء الثاني". ومقال: "القضايا الخمس المصيرية للأمة المسلمة"، وهذا البحث المتواضع]

(2) [انظر: كتاب "العقيدة السياسية في التصور الإسلامي"]

المرحلة الثالثة: (**مرحلة الجهاد، والوصول إلى الحكم**)، وهي مرحلة الثورة والجهاد على "أئمة النفاق"، وجهادهم جهاد "أهل البغي" - كما سبق البيان في مواطن أخرى[1] - ولا بد لهذا الجهاد أن **يكون ربانياً خالصاً لله، يبتغي الله والدار الآخرة، والتمكين لدين الله، ونصرة المسلمين، ولتحكيم كتابه وشريعته**، ولا يزهد هذا الجهاد في الوصول إلى الحكم.. بل غايته **إعادة "عروة الحكم" إلى "ولاية الله"**.. ولا يستجيب لترغيب أو ترهيب أعداء الداخل أو الخارج. فقادة هذا الجهاد وجنوده هم بمثابة الآباء المؤسسين للدولة الإسلامية، ومن جانب آخر: ليس هذا معناه الاستئثار بالمال والسلطة والاستبداد بالحكم، إنما معناه ضمانة ألا تُسرق ثمرة الجهاد، أو أن يتحول عن أهدافه، فالجهاد الحق يجب أن تظل رايته مرفوعة أبداً؛ لأن الباطل والمجرمين لن يتوقفوا عن حرب الحق وأهله، والتدافع ماض إلى يوم الدين، والله ناصر دينه وجنده. (ولا يغفل فيها المصلحون عن "**أمراض التمكين**"، ويعملون على تزكية النفوس، والصدع بالحق، واستمرار التربية الربانية)

وبهذا الإخلاص لن يكون لهؤلاء المجاهدين إلا إحدى الحُسنيين: (النصر أو الشهادة): ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة: 52]

***

وقد لخصت "سورة العصر" دستور الأمة المسلمة، فكانت منهاجاً للفرد والجماعة والنظام، وفيها بيان الطريق، وحال البشرية دون هذا النور التام المبين، وخسارتها في الدنيا والآخرة ما لم تؤمن الإيمان الخالص المتجرد لله، وما لم يستحيل هذا الإيمان إلى واقع حياة، وإلى عمل الصالحات.. وإلى التواصي بالحق والجهاد بهذا الحق الذي هو الإيمان والعمل الصالح، وإلى الصبر على مقتضيات وتكاليف هذا الجهاد، وهذا الصدع بالحق، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: 1-3]

وقد حذر الله - جل جلاله - من هؤلاء الخاسرين الذين يصدون عن طريق الإيمان والعمل الصالح، وأمر عباده المؤمنين بالتواصي على تحقيق الإيمان وإقامته في واقع الحياة والعيش به والجهاد في سبيله، والصبر على ذلك، فقال سبحانه:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: 28]

(1) [انظر: بحث "الفئة الباغية"، ومقال: "السلمية والعنف"، وبحثي: "أجهزة الاستخبارات الفكرية في مواجهة التمرد المدني" و"أجهزة الاستخبارات الفكرية في مواجهة التمرد المسلح"، ومقال: "خط الفاعلية"]

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾ [الفرقان: 52]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٣﴾ [الأحزاب: 1-3]

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٤٨﴾ [الأحزاب: 48]

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٥﴾ [القلم: 8-15]

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا ٢٤ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥﴾ [الإنسان: 24-25]

وفي أي حال كان فيه المسلم، وكانت فيه الأمة المسلمة.. عليه وعليها تحقيق العبودية الخالصة لله، فلا **تَهِنْ وتَسْتكِن للاستضعاف، ولا تَطغى وتَتجبر في التمكين**؛ وتُسلم وجهها لله في كل حين، وفي كل حال، شاعرة وشاكرة لأنعُم الله، ولفضله، ومستيقنة لحكمته، ومقره بعدله، وراضية بقضائه، ومجاهدة في سبيله، ومستقيمة على طريقه: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٥ فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡفَسَادِ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّنۡ أَنجَيۡنَا مِنۡهُمۡۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٩ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٠ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ١٢١ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٢٢ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٢٣﴾ [هود: 112-123]

بحمد الله

***